

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسبوط
المجلة العلمية

نثر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي
المضمون والتشكيل الفني

إعراب

د / محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

أستاذ الأدب والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة

(العدد الثاني والأربعون)

(الإصدار الأول ٠٠٠ أبريل)

(الجزء الأول (١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م))

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536-9083

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٢٧١ / ٢٠٢٣م

نشر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، المضمون والتشكيل الفني

محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، المنصورة، مصر.

الايمل الجامعي : Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يرصد البحث النثر الذي جاء في الفتوحات الإسلامية في عصر بني أمية، والبناء النفسي والفكري الذي دار حوله وبني عليه، كالحض على الجهاد، وشحذ الهمم وإلهاب العزائم، وبت روح الحمية في نفوس المقاتلين، والحض على الصدق والصبر، والإقدام والثبات في ميادين الوغى وساحات المعارك، والتحذير من كيد العدو، ووصف سير المعركة، والتبشير بالنصر والتهنئة بالفتح، وقد استعان الكتاب بالوسائل الأسلوبية والتصويرية المتنوعة للتعبير عن التجربة، وتوصل البحث إلى أن النثر الأموي رصد هذه الفتوحات وسجلها، وصورها تصويراً حياً ينبئ عن تجربة سامية، وبيّن بلاء المسلمين وجهادهم، وأكد على صدق عاطفة الكتاب واستبسالهم في الدفاع عن دين الله تعالى، ونشر راية الإسلام والمسلمين. وجاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث، وتمهيد، وخاتمة. تناول التمهيد - بإيجاز - الفتوحات الإسلامية في عهد بني أمية. وفي المبحث الأول: (البناء النفسي والفكري)؛ والمبحث الثاني (البناء الفني) والمبحث الثالث (ظواهر فنية)؛ والمبحث الرابع (خصائص وسمات) ثم كانت الخاتمة؛ وفهرس المراجع، ثم فهرس الموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الأدب الأموي، النثر، الفتوحات الإسلامية، الخطابة، الرسائل الفنية.

Prose of Islamic conquests in the Umayyad era Content and artwork

Mohamed Abdel Aziz Abdel Aziz Abdel Hamid

*Assistant Professor of Literature and Criticism at the Faculty
of Arabic Language in Mansoura, Al-Azhar University,
Egypt*

E-mail: Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

Abstract:

The research monitors the prose that came in the Islamic conquests in the era of the Umayyads, and the psychological and intellectual construction that revolved around it and built on it, such as inciting jihad, sharpening determination and inflaming resolve, instilling a spirit of zeal in the hearts of fighters, and exhorting honesty and patience, and courage and steadfastness in the fields of battle and battlefields. And warning against the plot of the enemy, describing the course of the battle, heralding victory and congratulating the conquest. He emphasized the sincerity of the writers' sentiments and their determination to defend the religion of God Almighty, and to spread the banner of Islam and Muslims. The research came in an introduction, four topics, a preface, and a conclusion. The preamble dealt briefly with the Islamic conquests during the Umayyad era. In the first topic: (psychological and intellectual construction); The second topic (artistic construction) and the third topic (artistic phenomena); And the fourth topic (characteristics and features), then the conclusion was; References index, then topics index.

Keywords: *Umayyad Literature , Prose , Islamic Conquests , Rhetoric , Artistic Messages..*

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فنثر الفتوحات الإسلامية يمثل وثيقة تاريخية وأدبية مهمة من تاريخ الإسلام والمسلمين، وهو يصور عقيدة أسلافنا من الصحابة والتابعين ومنّ والاهم، وتفانيهم في الدفاع عن دين الله تعالى، وحملهم على عاتقهم نشر هذا الدين في شتى بقاع الأرض، كما يكشف عن حال الخلفاء والولاة والقادة مع أعداء الإسلام، وحرصهم على نصرته الإسلام، ورفع راية المسلمين، مصورا بأسهم وشجاعتهم في ميادين الوغى وساحات الهيجا، تتطرق بذلك خطبهم ورسائلهم.

هذا النثر يزخر بالمعاني السامية، والعواطف الصادقة، ويتجلي فيه قوة الشعور، وصدق الإحساس، ويحمل في طياته أفكارا جليلة، وقيما جمالية وفنية تكشف عن امتلاكه أدوات الفن، وآليات الإبداع، بما يغري الدارس باستجلائها، والتحاور مع أبعادها، والتطلع في أهدافها، والكشف عن مدى صدق التجربة، لذا كان هذا البحث.

ولم يتناول أحد من الدارسين - فيما أعلم - نثر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي - وهو العصر الذهبي لتلك الفتوحات - مع وفرته، وقيمه الأدبية، وجودته الفنية، وما وجدته فهي دراسات خاصة بالشعر، منها: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: للدكتور نعمان عبد المتعال القاضي، وشعر الفتوح الإسلامية في العصر الأموي⁽¹⁾، ودراسات عنيت بالأدب السياسي في العصر الأموي، منها: أدب السياسة

(1) أطروحة (ماجستير) للباحث إبراهيم محمد عماري، جامعة اليرموك، إربد 1986م.

في العصر الأموي للدكتور لأحمد الحوفي، والخطابة السياسية في عصر بني أمية للدكتور إحسان النص.

وقد جاء البحث بعد هذا التقديم في أربعة مباحث، وتمهيد، وخاتمة. تناولت في التمهيد-بإيجاز- الفتوحات الإسلامية في عهد بني أمية. وفي المبحث الأول:(البناء النفسي والفكري) وقفت مع المضمون النفسي والفكري لهذا النثر؛ ثم كان المبحث الثاني (البناء الفني) تحدثت فيه عن البدء، والانتقال، والختام، وجاء المبحث الثالث (ظواهر فنية)؛ عالجت فيه أبرز الظواهر الأسلوبية والفنية التي استعان بها الكتاب في التعبير عن تجربتهم، وتشكيل صورهم. وفي المبحث الرابع(خصائص وسمات) رصدت بعض السمات التي تميز بها هذا النثر من غيره، كالاتجاه الوعظي، والإيجاز، والتوجيهات والآداب الحربية، والترابط والتواءم. ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلى ما تضمنه البحث من حقائق، وانتهى إليه من نتائج، ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،
وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

دكتور/ محمد عبد العزيز عبد العزيز

تمهيد:

الفتوحات الإسلامية في عهد بني أمية

لم تنقطع الفتوحات في عصر صدر الإسلام، وكان انتشار دعوة الإسلام هو شغل المسلمين الشاغل، فتسابقوا إلى ميادين الجهاد، وساحات المعارك، لنشر دين الله تعالى، مهطعين إلى نداء ربهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾^(١) الآية. لا حبا في الغزو وتهاافتا على مغانمه، وإرضاء لهوى القتال الكمين في طباعهم، وإنما جهادا في سبيل الله، يدفعهم إليه الإيمان الصادق بالعقيدة السليمة، والقوة العاتية التي بثها فيهم الإسلام، فحبيت إليهم الاستشهاد في سبيل الله، فانطلقوا على رغبة وحنين إلى الجنة، وباستهانة نادرة بالحياة، يتمثلون الآخرة بنعيمها وظلالها، حتى بسطوا نفوذهم في مواطن كثيرة، وخلص لهم وجه بلاد العرب^(٢).

وجاء عهد بني أمية؛ فكانت الفتوحات طوفانا عارما لا ينقطع، وكان الخلفاء لحرصهم على الفتوحات يشهدون القتال بأنفسهم، ويمارسونه، ويرسلون أبناءهم للجهاد، وانطلق قادة الجيوش فاتحين حتى وصلوا إلى بلاد ما وراء النهر، وفتح الله على الإسلام والمسلمين في عهدهم فتوحات عظيمة؛ واتسعت رقعة الدولة الإسلامية حتى وصلت الصين شرقا وبلاد المغرب العربي والأندلس غربا^(٣)، وانتشر الإسلام في هذه البلاد القصية، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وارتفع شأن الإسلام والمسلمين.

(١) سورة التوبة: من الآية (١١١).

(٢) ينظر: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: د. النعمان عبد المتعال القاضي، ص ٣٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: التاريخ الإسلامي (العهد الأموي): محمود شاكر ٤/٤٨ المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

يقول ابن كثير واصفا تلك الفتوحات: "كانت سوقُ الجهاد قائمةً في بني أمية، ليس لهم شغلٌ إلا ذلك، قد علّت كلمةُ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرّها وبحرها، وقد أدلّوا الكفر وأهله، وامتألت قلوبُ المشركين من المسلمين رُعباً، لا يتوجّه المسلمون إلى قُطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شِردمة عظيمة ينصرُ الله بهم دينه"^(١).

وكانت الفتوحات الإسلامية في بني أمية داخلية: تتمثل في العدو الداخلي، ويشمل الخارجين على ثوابت الإسلام من الفرق والنحل، وكانت الخوارج- والأزارقة منهم خاصة- أشدها قوة، وأكثرها جمعا، وأعزها نفرا، كانوا شوكة مؤلمة في جسدكم طوال فترة حكمهم، وخطرا عظيما على الإسلام والمسلمين، استنقل خطرهم، وشاع أمرهم، وفي كلِّ ثغر يهربون إليه ينشرون الخراب والقتل، يذبّحون أبناء المسلمين، ويستحيون نساءهم، ولا يتورّعون عن بقر بطون الحُبالي، وكانوا يستهينون بالموت، ويستعذبونه في ميادين الوغى وساح القتال، وقد شغلوا الأمويين بقتالهم حيناً من الدهر، فاستنزفوا طاقاتهم، وأنهكوا قواهم"^(٢).

فتن الخوارج كثيرا من المسلمين في دينهم، فتبعهم خلق كثير، آمنوا بدعوتهم، لما رأوا من انتصاراتهم المتوالية، وتفانيهم في القتال، واستبسالهم في الدفاع عن معتقدهم، فظنوا أنهم على الحق، فكانوا أعتى وأشد على المسلمين من العدو الخارجي، بل كانوا من أكبر المعوقات في امتداد الفتح الإسلامي"^(٣).

(١) البداية والنهاية لابن كثير: تحقيق: محمد حسان عبيد ٢٥٤/٩، دار ابن كثير، دمشق، ٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

(٢) ينظر: السابق ٤٩/٩ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي: مجدي فتحي السيد، ص ٣٠٥، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨م.

أما الفتوحات الخارجية فتمثلت في تلك البلاد التي منّ الله علي المسلمين بفتحها، بقيادة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أعدوا ما استطاعوا من قوة لنشر دين الإسلام في ربوع الأرض، وحملوا لواء الفتح الإسلامي، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وقاتل أعدائه، يذودون عن حياض الإسلام وأهله، منهم: المهلب بن أبي صفرة، ويزيد بن المهلب، وقتيبة بن مسلم، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، ونصر بن سيار وغيرهم.

فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، ومسلمة بن عبد الملك بن مروان يفتح في بلاد الروم، ويجاهد بعساكر الشام حتى وصل إلى القسطنطينية، وبنى بها جامعاً يعبد الله فيه، وامتألت قلوب الفرنج منهم رعباً، ومحمد بن القاسم-ابن أخي الحجاج- يجاهد في بلاد الهند، ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم، وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب، ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم، وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبادة الأوثان^(١).

هذه الأحداث والفتوحات كانت سبباً مباشراً في إنكفاء حركة النثر في العصر الأموي، وكان القادة الفاتحون أصحاب لُسنٍ يعتمدون عليها في تحميس الجنود، ولهم من المقدرة البيانية، والفصاحة المتوارثة، والطبع السليم ما يؤهلهم لتدبيح الخطب العصماء، والرسائل العذراء^(٢).

وقد انطلقت ألسنة الكتاب، وسالت أقلام الخطباء تحض على الجهاد في سبيل الله، وتشحذ همم الجند، وتلهب عزائمهم، وتحثهم على الصبر والصدق، وتهون من شأن

(١) ينظر: البداية والنهاية ٢٥٤/٩.

(٢) ينظر: أدب السياسة في العصر الأموي: د. محمد أحمد الحوفي، ص ٣٦٥، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.

نثر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، المضمون والتشكيل الفني

عدوهم، وتحذره من كيده، وتصف سير المعركة وأحداثها، مفاخرة بشدة بأس المجاهدين واستبسالهم في الدفاع عن دين الله، وإعلاء كلمة الحق، ورفع راية الإسلام، معبرة عما أفاء الله به على المسلمين، فرحة مستبشرة، مباركة الفتح العظيم، مهنته بنصر الله، حامدة له على الظفر والنصر. وهذا ما تكشف عنه الصفحات التالية، إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول:

المضمون النفسي والفكري

إن نثر الفتوحات الإسلامية يعد سجلا صادقا لما كان عليه المسلمون في مواجهة أعداء الإسلام الذين يترصون بهم الدوائر، ويتحينون الفرصة للقضاء عليهم بين الفينة والأخرى، وهو ينبئ عن بطولات المسلمين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وساهموا في نشر دين الله - تعالى - في بلاد علا فيها صوت الباطل، وغابت عنها شمس الإسلام، صاحبوا الهيجا وألّفوها، وأثبتوا شجاعتهم في ساحات الوغي، وميادين القتال، وكانوا عنوانا للبطولة الإسلامية، باعوا أنفسهم وأموالهم بالجنة، استجابة لأمر ربه، وهذه - لعمرى - هي التجارة الرباحة. والمتأمل في هذا النثر يظهر له ثراء مضمونه، وشموله، وحيويته، فهو يحمل من المعاني البارعة، والأفكار الناصعة، والصور الفاتنة، ما يؤكد على ثرائه، وتنوعه، ويبدو ذلك فيما يلي:

أولا- الحض على الجهاد في سبيل الله وشحذ الهمم واستنهاض العزائم

الجهاد في سبيل الله هو التجارة الرباحة مع الله سبحانه وتعالى، لما يترتب عليه من إعلاء كلمة الله تعالى، والطمع في نيل الشهادة في سبيله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

وكان القادة في جهادهم ضد أعداء الإسلام يحمسون الجند، يستنهضون همهم وعزائمهم للقتال ببسالة وعزم وصدق، وينفرونهم من الهزيمة، ويهوئون في نفوسهم القتل، ويؤلبونهم على أعدائهم، متكئين في هذا كله على بيان فضل الجهاد، وأجره

(١) سورة الصف: الآيات: (١٠-١٢).

العظيم، ومن نماذج ذلك قول قتبية بن مسلم الباهلي^(١) حين تهيأ لغزو آخرون وشومان من بلاد طخارستان^(٢): "إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحُرْمَاتِ، ويزيد بكم المال استفاضةً، والعدوَّ وقماً، ووعد نبيه النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾"^(٣)، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوُّونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾"^(٤)، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ

(١) أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان، افتتح كثيراً من المدائن، وأذعن له بلاد ما وراء النهر، وكان شهماً مقدماً نجيباً، فارساً مغواراً، (ت ٩٦هـ). ينظر في ترجمته وأخباره: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق: د. إحسان عباس ٤/٨٦، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨م. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٦/٤٢٤، ٥٠٦ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة، الثانية ١٩٧١م.

(٢) غزا قتبية آخرون وشومان وغيرها من بلاد طخارستان (٩١هـ). ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٦١، والكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: د. محمد يوسف الدقاق ٤/٢٦١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. وطخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ٤/٢٣، دار صادر، بيروت، الثانية، ١٩٩٥م.

(٣) سورة التوبة: الآية (٣٣). الوَقْمُ: وَقَمَ الرَّجُلُ وَقَمًا وَقَمَةً: أَذَلَّهُ وَقَهَرَهُ. لسان العرب: (وقم).

(٤) سورة التوبة: الآيتان (١١٩، ١٢٠).

الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١﴾ ففَتَجَرَّوْا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَىٰ آثَرٍ، وَأَمْضَىٰ أَلْمِ، وَإِيَّايَ وَالْهُؤَيْنَىٰ ﴿٢﴾.

من أبطال الإسلام البارزين الذي سجلوا أسماءهم في صفحات التاريخ الإسلامي، وأبلوا بلاء حسنا في الدفاع عن دين الله، ونشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر: قتيبة بن مسلم الباهلي، قام بحملات عديدة ضد أهل الكفر، وامتدت غزواته حتى وصل إلى بلاد الصين. شخص غازيا إلى طَخَارِسْتَان، وفي إحدى فتوحاته راح يحض الجند على الجهاد في سبيل الله، يستتعض الهمم، ويلهب العزائم، للدفاع عن دين الله، ومجاهدة أعداء الإسلام، متخذا من العاطفة الدينية سبيلا لذلك، مؤكدا على الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله، فما يصيبهم في جهادهم هو عند ربهم في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وفي النهاية يبين لهم جزاء الشهداء، فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

والخطيب يتخير الصياغة التي تتواءم مع الموقف، وتسهم في تأكيد المعنى، وتشد من أزر المقاتلين، فقد اصطفاهم الله تعالى: (ليعز دينه، ويذبوا عن الحرمات، ويزيد بهم مال المسلمين، ويذيقون أعداء الإسلام ذلا وهوانا). فهم ينصرون دين الله، ويقتلون أعداءه، ويذودون عن حياض الإسلام، ويذبون عن المسلمين، والتعبيرات: (فتتجزوا موعود ربكم، ووطنوا، أقصى أثر، وأمضى ألم، وإيأي والهويني) من شأنها أن تلهب عزائمهم، وتحضهم على قتال عدوهم.

لقد اتبع قتيبة الأساليب المشوقة والمحمسة التي تدفع بالجند إلى خوض الجهاد بنفوس راضية وقلوب مؤمنة، وتحمسهم للدفاع والقتال، وكان لاستشهاده بأي الذكر

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

(٢) تاريخ الطبري ٦/٤٢٤. وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت ٢/٢٩٠، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

الحكيم أثر واضح في التأثير في النفوس، وسبيل لشحذ همهم، وإذكاء حماسهم، واستنهاضهم للقتال، طمعاً في ثواب الجهاد، والظفر على الأعداء، أو نيل الشهادة في سبيل الله. وصدق فيه قول القائل مُطرباً بأسه وشجاعته: (من الطويل)

وما كان مُدْ كُنَّا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كايّن مسلم
أعمّ أهل الشرك قتلاً بسيفه وأكثرَ فينا مَقْسِماً بعد مَقْسَمِ^(١)

ومن نماذج ذلك - أيضاً - قول طارق بن زياد^(٢) في خطبته المشهورة لما وجّهه موسى بن نصير لفتح الأندلس^(٣): "أيّها الناس، أين المَقَرّ؟ والبحرُ من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم -والله- إلا الصدقُ والصبرُ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيغُ من الأيتامِ في مآدب اللئامِ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدتْ بكم الأيامُ على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبْت ربحكم... واعلموا أنكم إن صبرتم على الأثق قليلاً استمتعتم بالأرزقِ الألدّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي... وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطالِ عزبائاً، ورضيكم لملوكِ هذه الجزيرة أصهاراً وأختائاً، ثقةً منه بارتياحكم للطعانِ، وإسماحكم

(١) تاريخ الطبري ٤٧٩/٦.

(٢) مؤلى موسى بن نصير، وفتاح الأندلس، والي طنجة والمغرب الأقصى، وأخباره كثيرة مشهورة (ت ١٠٢هـ) ينظر في ترجمته وأخباره: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضببي: ص ٧، ٨، ٣٢٨، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفينسال ٤٣/١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الثالثة ١٩٩٣م.

(٣) كان فتح الأندلس (٩٢هـ). ينظر في ذلك: تاريخ الطبري ٤٦٨/٦، والكامل لابن الأثير: ٢٦٤/٤.

بمجادلة الأبطال والفرسان، ليكون حظُّ منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمًا خالصًا لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم^(١).

في أسلوب قوي تغلب عليه النزعة الحماسية يحثهم طارق على الجهاد، ويرغبهم في الشهادة، ويحضهم على مجابهة عدوهم ببسالة وعزم وصدق، منفرا إياهم من الهزيمة، مهونا في نفوسهم القتل، واتقا في نصر الله تعالى لعباده المؤمنين، وهو يقطع أمامهم التفكير فيما سوى الغزو والقتال، ذلك أن جيش العدو وعدته وعدده يفوق المسلمين مرات، وأقواتهم وأسلحتهم موفورة، فلا قبل لهم به، وليس أمامهم إلا الصبر على ما يكرهون، والصدق في ملاقاته.

وقد انعكست آثار هذه النزعة الحماسية على التعبير والتفكير والتصوير، فالاستفهام (أين المفر؟) يؤكد أنه لا سبيل أمامهم إلا المواجهة والقتال، والحمل على أعدائهم، بل والنصر، والطباق في قوله: (البحر من ورائكم، والعدو أمامكم) يكشف أنه لا مناص من المواجهة، والاستبسال، فلا بد أن يثبتوا ويدفعوا عن أنفسهم عار الهزيمة والمذلة. والقسم: (وليس لكم -والله- إلا الصدق والصبر) يؤكد أن سبيل النصر هو الصدق والقتال بحزم وعزم، والصبر على قتال العدو، والمقابلة: (إن صبرتم على الأشق قليلا/استمتعتم بالأزفة الألد طويلا) تكشف عن أن الصبر على ما يكرهون خير لهم، والقتال بعزم وحزم، وصدق وثبات جزاؤه النعيم المقيم في الدنيا والآخرة، والكناية: (واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللثام) تحمل معاني الذل، والضعف، والهوان، وفيها ما يشدّ الهمم للقتال والمواجهة.

هذه الصور تكشف عن الحماسة التي يمتلئ بها قلب القائد، المتهيئ للقتال، العازم عليه بكل صدق وعزم، يحركه ويقوده إيمان أخذ بمجامع قلبه، وفيها ما يبعث في

(١) وفيات الأعيان ٣٢١/٥، ٣٢٢. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس ١/٢٤٠، ٢٤١. دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

نفوس المقاتلين الحمية، والعزم والقتال والمواجهة بحزم وثبات، متسلحين بالصدق والصبر، وما أفاء الله عليهم من الإيمان الكامن في قلوبهم، متذرعين بوعدهم لهم بحسن الجزاء، أو النصر المبين، أو الشهادة في سبيل الله، مهطعين إلى نداء ربهم: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(١).

والقائد يتبع أسلوب الترغيب في ثواب الله تعالى وجزاء المجاهدين، ليقاتلوا بقوة وعزم وبأس، وأسلوب التهيب حين يخوفهم من عار الهزيمة، وذل الأسر والسبي إن تهاونوا في جهاد عدوهم، في تعبيرات تحمسهم، وتثير همهم وعزائمهم، وتوقظ في قلوبهم حمية الدفاع عن دين الله، ونشره في تلك البلاد القصية التي لا تعرف للإسلام سبيلاً: (الأبطال، ورضيكم أصهاراً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان) حتى ينالوا الثواب العظيم الذي وعد الله تعالى به المجاهدين في سبيله: (ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين).

وكان لهذا الأسلوب النائر المنقذ أثره في نفوس القوم، فلما حمي وطيس الحرب، والتقى الجمعان، ضربوا الرقاب وأثخنوهم، وشدوا الوثاق، وهزمهم شر هزيمة، وعذبهم الله بأيديهم، وشفى صدور المؤمنين، وانتصروا عليهم بإذن ربهم، وانقشع غبار المعركة عن نصر مؤزر، تلاه فتوحات في بلاد الأندلس كثيرة، ومن الله عليهم بغنائم وفيرة.

ثانياً- الصدق والصبر سبيل النصر

حض القرآن الكريم على الصبر، ورجب في ثواب الصابرين، سيما في ملاقات العدو في ميادين الهيجا وساحات المعارك، فالصبر زاد المجاهد في سبيل الله، ووسيلته إلى النصر في مغالبة العدو، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) سورة التوبة: الآية (١٤).

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١﴾. وقال - صلى الله عليه وسلم: (واعلم أن النصر مع الصبر) (٢)، وقد قيل: "الحرب رَحَى ثِقَالُهَا الصبر" (٣).

وكان الكتاب في خطبهم ورسائلهم يحضون المقاتلين على الصبر، ويدعونهم إليه، حتى يمن الله عليهم بالنصر والظفر على أعدائهم، والصبر إنما يهون ويسهل أمام ثواب الجهاد العظيم، ونيل درجة المجاهدين الصابرين. ومن ذلك قول عتّاب بن ورقاء (٤): "يا أهل الإسلام: إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء، وليس الله لأحدٍ من خلقه بأحمدَ منه للصابرين؛ ألا ترون أنه يقول: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؟ (٥)؛ فمن حمد الله فعله، فما أعظم درجته، وليس الله لأحدٍ أمقتٌ منه لأهل البغي، ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرضُ المسلمين بسيفه؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قربةً عند الله؛ فهم شرارُ أهل الأرض، وكلابُ أهل النار" (٦).

كان عتّاب بن ورقاء من أولئك الذين تولوا قتال الخوارج، خرج في جيشه يحث الجند على تقوى الله ويأمرهم بالصبر والثبات، والشدة في قتال عدوهم، وقد اعتمد

(١) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٢) المسند للإمام أحمد، تحقيق: أحمد محمد شاكر ٣/٢٤٤-٢٤٦، رقم (٢٨٠٤)، دار الحديث، القاهرة، الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وزميله ١/١٠٨، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م. النقال: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحي يقع عليه الدقيق.

(٤) من الأبطال الذين أبلوا بلاء حسنا في قتال الخوارج، انتدبه الحجاج لقتال شبيب بن يزيد، فقاتل حتى قتل (٧٧هـ). ينظر في ترجمته وأخباره: الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣/٢٦٩، دار الفكر العربي، القاهرة، الثالثة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. تاريخ الطبري ٣٥٧/٦.

(٥) سورة الأنفال: من الآية (٤٦).

(٦) تاريخ الطبري: ٦/٣٦٣. جمهرة خطب العرب: ٢/٤٤٥.

الأساليب التي تشوق المتلقين وتحمسهم على القتال: فهم (أهل الإسلام) الذين يذودون عن حياضه، وهو يؤكد لهم على جزاء الشهداء العظيم عند ربه: (إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء)، والمقابلة: (وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين/وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي) تكشف عن عظيم أجر الصابرين، خاصة في ميادين الوغى، وتوحي بأن الصبر من سبل النصر، وتَصِمُ أعداءَهُم بالبغي والعدوان ومجاورة الحد، (فهم شرار أهل الأرض) وهي أساليب قوية تجذب المتلقي وتحمسه، وتثير في نفسه الشوق إلى الجهاد والاستعداد له، ابتغاء ثوابه، ونيل درجة الشهداء، ولها دورها في إثبات الفكرة، وإقناع المتلقي.

كما كان للاستفهام الذي كرره الكاتب مرتين في قوله: (ألا ترون أنه يقول:..؟؛ ألا ترون أن عدوكم؟) دوره في إيقاظ المتلقين، واستبسالهم في الدفاع عن دين الله، وتحفيزهم على قتال هذا العدو الذي بَغَى وطغى، وراح يستعرض المسلمين بسيفه، وقد جاء كاشفاً للمعنى، مرسخاً للفكرة، والخطيب يتخذ من الاتكاء على الجانب الديني سبيلاً لشحذ الهمم، وإلهاب العزائم، وتحسيسهم على القتال، مبينا أنه لا ثواب أعظم من ثواب الصابرين، معضداً كلامه بكلام رب العالمين، بما يسهم في إثراء المعنى وتأكيده، وترسيخ الفكرة، والتأثير في النفوس، ويضفي على كلامه الصدق والإقناع.

وإذا كان ابن ورقاء ركز على الصدق والصبر معضداً كلامه بأي الذكر الحكيم، فالحجاج^(١) قرن الصبر بالصدق، مُطرباً على المجاهدين بأنهم أهل الطاعة الذين يسعون في مرضاة الله، وعدوهم أهل المعصية الذي يسعون في سخط الله وغضبه، يقول مخاطباً الجند: "إنكم أهل الطاعة، وهم أهل المعصية، وأنتم تسعون في رضوان

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي من خطباء العرب، ولاه عبد الملك الحجاز، ثم ولاه العراق، فتح فتوحات كثيرة، وصلت بلاد الهند والسند، والصين، (ت ٩٥هـ) ينظر في ترجمته وأخباره: البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٨/٩ وما بعدها، تحقيق: محمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م. تاريخ الطبري: ٤٩٣/٦.

الله، وهم يسعون في سُخْطِ الله، وعادة الله عندكم فيهم حسنة، ما صدقتموهم في موطن قط، ولا صبرتم لهم إلا أعقبكم الله النصرَ عليهم، والظفرَ بهم، فأصْبِحُوا إليهم عَادِينَ جَادِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ أَشْكُ فِي النِّصْرِ، إِنْ شَاءَ اللهُ"^(١).

كان الحجاج من أولئك الذين يعرفون أثر الكلمة، ومدى تأثيرها في النفوس، فيبين لهم أنهم بجهادهم يسعون في طاعة الله تعالى ورضوانه، وأما عدوهم فهم أهل المعصية يسعون في سخط الله وغضبه، وهو يشد عليهم أن يتسلحوا بالصدق والصبر فهما سبيل النصر، وهو بهذا الأسلوب يبث الحمية في النفوس، ويذكي حماساتهم، ويهون من شأن العدو، ويحملهم على الاستبسال في مجاهدته.

والتعبير والتصوير لهما دورهما في التأثير على المتلقين: فالتعبيرات: (صدقتموهم، صبرتم، أعقبكم الله النصر والظفر، فأصْبِحُوا، عَادِينَ جَادِينَ، لست أشك في النصر) تعبيرات قوية ثائرة تكشف عن الحماسة التي تمتلئ بها روح الكاتب، ولها تأثيرها في تحميس المقاتلين وإلهاب عزائمهم، والمقابلة في قوله: (أهل الطاعة، يسعون في رضوان الله/ أهل المعصية، يسعون في سخط الله) لها دورها في إيقاظ حميتهم واستبسالهم، فهم أهل الصبر، والصدق، والطاعة، وتلك صفات إذا تحلى بها المقاتلون نالوا النصر إن شاء الله تعالى، وقد كان. قال: فأصْبِحْنَا، وقد عبأنا في السَّحَرِ، فباكَرْنَاهُمْ، فقاتلناهم أشدَّ قتالٍ قاتلناهموه قط"^(٢). إذ جُدعت أنف الكفر، وعَثرت قدمه، وغَضت عينه، وتبدد شمله، وكان النصر حليفاً لأهل الإيمان والطاعة.

وقد بدا واضحاً - من خلال النصوص - أن الدعوة إلى الصبر والثبات في ميدان القتال، والصدق في ملاقات العدو - سلاح قوي في مجابهة الأعداء، وسبيل قويم إلى النصر إن شاء الله.

(١) تاريخ الطبري ٦/٣٦٦، ٣٦٧. وكان ذلك في وقعة مسكن (٨٣هـ) ينظر: السابق ذات الصفحة.

(٢) تاريخ الطبري: ٦/٣٦٧.

ثالثا- الإقدام والثبات في مواجهه العدو، والتحذير من كيده.

الإقدام والثبات في مجابهة الأعداء سلاح قوي، وسبيل قويم من سبل النصر، وكان قادة الجيوش يحضون المقاتلين على الثبات والاستبسال، ويحذرونهم من غدر العدو وكيده، ويهونون من شأنه، حتى يمن الله عليهم بالظفر، يقول ابن عبد ربه: "جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

ومن نماذج ذلك قول المهلب بن أبي صفرة^(٢) يحث جنده على قتال الخوارج ويأمر أصحابه بالتحرز ويخوفهم البيات، وإن بُعد منهم العدو، ويقول: "احذروا أن تُكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا هزمنا وغلبنا؛ فإن القوم خائفون وجِلون، والضرورة تفتح باب الحيلة، ثم قام فيهم خطيباً، فقال: "يا أيها الناس، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وإنهم إن قدروا عليكم فتتوكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم: علي بن أبي طالب صلوات الله عليه... فألفوهم بجدٍّ وحدٍّ فإنما هم مهنتكم وعبيدكم، وعازرٌ عليكم، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم، ويطنوا حريمكم"^(٣).

لما قوي أمر الخوارج واشتد خطرهم، كتب عبد الملك إلى أخيه بشر، قائلاً: "قابعت المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى

(١) العقد الفريد ١/١١٦. والآيتان: (٤٥، ٤٦) من سورة الأنفال.

(٢) من دهاة العرب وأجوادهم، وأحد أشرف البصرة، ولي حرب الخوارج من قبيل الحجاج، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكانت جل حياته في الغزو. (ت ٨٢هـ). ينظر في ترجمته وأخباره: البداية والنهاية ١٨٨/٩. تاريخ الطبري ٣٥٤/٦. وفيات الأعيان: ٣٥٠/٥.

(٣) الكامل للمبرد ٣/٢٢٧. جمهرة خطب العرب ٢/٤٢٩، ٤٣٠.

الفضل والتجربة منهم، فإنه أعرفُ بهم، وخطه ورأيه في الحرب، فإني أوثقُ شيءٍ بتجربته، ونصيحته للمسلمين"^(١).

وكان المهلب فارسًا مغوارًا، خبيرًا بضروب الحرب والطعان، شاكِي السلاح، بطل مجرب. يقول ابن كثير: "فسار إليهم المهلب- وكان شجاعًا بطلاً صنديدًا- فلما التقى هو والخوارج أقبلوا إليه يزفون في عدة لم ير مثلها من الدروع والزرود والخيول والسلاح، وذلك أن لهم مدة يأكلون تلك النواحي، وقد صار لهم تحمّل عظيم مع شجاعة لا تُداني، وإقدام لا يُسامى، وقوة لا تُبارى، وسبق إلى حومة الوغى لا يُجارى"^(٢).

والمهلب يحذرهم من كيد عدوهم، وفتنته، ويهون من شأنه ويخوفهم من الهزيمة وسوء العاقبة، ويصارع جنده بما هم عليه، مبينا لهم مذهبهم، فإن قدروا عليهم فتتوهم في دينهم، وسفكوا دماءهم، وقتلوا أبناءهم. فقد كان للأزارقة من البأس والإقدام والشدة في القتال ما يمكن معه أن يكون سببا في فتنة كثير من المسلمين، ظنا منهم أن الشجاعة والقوة دليل على صحة اعتقادهم، وصواب منهجهم، وما يؤمنون به.

ثم طفق المهلب يذكرهم بأمرهم مع الإمام عليّ-كرم الله وجهه- وخروجهم عليه، وقد قاتلهم طويلا حتى لقي ربه، تحريضا لهم على القتال والاستبسال في مواجهة عدوهم، متخذا من الصياغة التعبيرية التي تتواعم مع الموقف ما يؤكد المعنى، ويرسخ الفكرة: (فألفوهم بجدّ واجتهاد، هم مهنتكم وعبيدكم، عار عليكم، ونقص في أحسابكم وأديانكم، ويطئوا حريمكم) وهي تعبيرات قوية لها تأثيرها في نفوس القوم، وإيقاظ حميتهم، وكان لحديثه عن الأعراض والأحساب أثره الواضح في إثارة مشاعرهم، وتحميسهم للدفاع عن أعراضهم.

(١) تاريخ الطبري ١٩٦/٦.

(٢) البداية والنهاية ٦/٩، ٧.

فما زالوا بهؤلاء الأزارقة المارقة يقاتلونهم قتالا عنيفا دون هوادة، حتى قضوا عليهم، وكتب الله لهم النصر، ففُطِع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين، وكان القضاء عليهم فتحا عظيما على الإسلام والمسلمين، وعلا شأن المهلب وارتفع، ولم يعرف الأزارقة خصما عنيفا أشد من المهلب، وحق له أن يخلد التاريخ اسمه مع ذلك النفر القليل الذي له فضل على الإسلام والمسلمين، والحق ما شهدت به الأعداء، فهذا فُطري بن الفجاءة زعيم الخوارج يصفه بقوله: "فهو الليثُ المبرُّ، والثعلبُ الرواغُ، والبلاء المقيم" (١). وصدق فيه قول الشاعر: (من الكامل)

وَإِذَا أَتَاكَ مَهْلَبِي فِي الْوَعْيِ فِي كَفِّهِ سَيْفِ فَنَعْمِ الْنَاصِرِ (٢)

وقال الآخر: (من الطويل)

أَلَا ذَهَبَ الْغَزْوِ الْمُقَرَّبَ لِلْغَنَى وَمَاتَ الْبَدَى وَالْجُودَ بَعْدَ الْمَهْلَبِ (٣)

ومن النماذج قول قتيبة لما تهيأ لغزو بلاد السُغدِ، وقد نقضوا العهد معه: "إن الله قد فتحَ لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكنٌ، وهذه السُغدُ شاعرةٌ برجلها، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طَرْحُونُ، وصنعوا به ما بلغكم، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (٤)، فسيروا على بركة الله، فإنني أرجو أن يكون خوارزم والسُغدُ كالنضيرِ وقريظة، وقال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ (٥).

(١) الكامل للمبرد ٢٤٠/٣ .

(٢) العقد الفريد: ١٢٩/١ .

(٣) تاريخ الطبري ٤٧٩/٦ . وفيات الأعيان ٣٥٤/٥ .

(٤) سورة الفتح: من الآية (١٠).

(٥) تاريخ الطبري ٤٧٢/٦، ٤٧٣ . وقد غزا قتيبة بلاد السُغد (٩٣هـ) . السُغدُ: بضم أوله، وسكون ثانيه (وقد تكتب بالصاد): ناحية بين بخارى وسمرقند تشتمل على قرى كثيرة، ينظر: معجم البلدان ٢٢٢/٣ . طَرْحُونُ: ملك السُغد . والآية الكريمة من سورة الفتح: من الآية (٢١) .

يحث قتيبة جنده على الإقدام والثبات في قتال ذلك العدو الغادر، الذي نفض العهد والصلح، ويحرضهم على الحمل عليه والاستبسال في قتاله، ويذكرهم بما كان من أمر قريظة والنضير مع النبي - صلى الله عليه وسلم - تثبيئاً لقلوبهم، وإيقاظاً للحمية الدينية في نفوسهم، متسلحاً بأي الذكر الحكيم التي تؤكد أن الناكث لعهدہ إنما ينكث على نفسه، والمفردة تؤكد على سوء صنيعهم، ومكرهم: (نقضوا العهد، منعونا، صنعوا ما بلغكم)، وهي تتضمن حرص المسلمين على تقديم السلم والمحافظة على العهد، وتكشف عن الثورة الكامنة في نفس القائد الشجاع، فقد لجوا في الطغيان، وتجاوزوا حد العصيان، لذا فهو يرجو أن يستأصل شأفتهم، ويقضي عليهم جزاء فعلتهم: (فسيروا على بركة الله، أرجو، النضير وقريظة)، وقد كان أن من الله عليهم بالفتح، والنصر، وصدق فيه قول الحجاج لما بلغه ما فعل من الفتوحات والقتل والسبي: "بعثت قتيبة فني غزاءً، فما زدتُه باعاً إلا زادني ذراعاً" (١). فكان بحق فارساً مغواراً لا يشق له غبار، وسيفاً مسلطاً على رقاب أعداء الله، وصدق قول القائل مسجلاً شجاعته وبسالته في قتالهم، وتقانيه في الدفاع عن دين الله: (من الخفيف)

كل يوم يحوي قتيبة نهباً
ويزيد الأموال ما لا جيداً ..
دوخ السغد بالكتائب حتى
ترك السغد بالعراء قعوداً
فوليد يبكي لفقده أبيه
وأب موجه يبكي الوليداً
كلما حل بلدة أو أتاها
تركت خيله بها أخدوداً (٢)

رابعاً- وصف حالهم مع العدو في ساح القتال .

لم يخل النثر الأموي من تسجيل ما كان من أمرهم في أرض المعركة وميادين الوغى، مصوراً حال الجنود وموقفهم من الهزيمة والنصر، وصمودهم أمام جحافل

(١) وفيات الأعيان ٨٧/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤٨٠/٦ .

العدو، يرصد قوته وشدة بأسه، واستبسأهم في ملاقاته. ومن ذلك ما كتبه يزيد بن المهلب إلى الحجاج يعلمه بفتح (بأذاغيس)^(١): «إِنَّا لَقِينَا الْعَدُوَّ، فَمِنْحْنَا اللَّهُ أَكْتَاْفَهُمْ، فَقَتَلْنَا طَائِفَةً، وَأَسْرَزْنَا طَائِفَةً، وَلَحَقْتُ طَائِفَةً بِرُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَعُرَاعِرِ الْأُودِيَةِ، وَأَهْضَامِ الْغَيْطَانِ، وَأَنْثَاءِ الْأَنْهَارِ. وَبِتْنَا بَعْرَعِرَةَ الْجَبَلِ، وَبَاتِ الْعَدُوَّ بِحَضِيضِهِ»^(٢).

لما توفي المهلب ولى الحجاج خراسان ابنه يزيد، وكان كأبيه قوة وبأساً، فارساً مغواراً لا يشق له غبار^(٣)، وكان يتمثل كثيراً في الحرب بقول الشاعر: (من الطويل)
تَأخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةَ مِثْلِ أَنْ أُتَقَدِّمًا^(٤)

وقد أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن دين الله وقتال أعداء الإسلام، وفتح الله على يديه بلادا كثيرة، صدح فيها صوت الأذان، وعلت في مساجدها صيحات الله أكبر، ومن هذه الفتوحات: فتح «بأذاغيس»، وهو يصور ما كان من أمرهم في ميدان المعركة، فقد باغتوا عدوهم وقاتلوهم أشد قتال، وحملوا عليهم، فولوا مدبرين، وأسروا منهم ما استطاعوا، ومزقوهم كل ممزق، وفرقوهم شذر مذر، تفرقوا في الأمصار، ومالوا إلى بطون الأودية، واعتصموا برؤوس الجبال، ولما رأوا تكالب المسلمين عليهم من كل

(١) فتح الله (بأذاغيس) على يد يزيد بن المهلب (٨٤هـ). ينظر: تاريخ الطبري: ٦/٣٨٦. والكامل لابن

الأثير ٤/٢٢٤. وهي ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة. ينظر: معجم البلدان ١/٣١٨.

(٢) تاريخ الطبري ٦/٣٨٧، الكامل لابن الأثير: ٤/٢٢٥ إلى قوله الأنهار، والزيادة من البيان والتبيين

للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون ١/٣٧٨، ٣٧٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

عراعر الأودية: أسافلها، وعراعر الجبال: أعاليها، أهضام الغيطان: مداخلها، والغيطان: جمع غائط

وهو الحائط ذو الشجر. ينظر: السابق ١/٣٧٨.

(٣) وفتح الله علي يديه فتوحات كثيرة. منها جرجان وطبرستان، توفي (١٠٢هـ) ينظر في ترجمته

وأخباره: وفيات الأعيان ٦/٢٧٨. تاريخ الطبري ٦/٥٩٠.

(٤) العقد الفريد ١/١٢٢.

جانب مالوا إلى المسالمة، وطلبوا المصالحة، وجنحوا إلى المفاوضة، وانتصر سيف الحق، وانكسرت شوكة الباطل.

وقد تخير الكاتب لكتابه الموجز مفردات تدل على القوة والمنعة، وشدة البأس والظفر على الأعداء، تكشف عن قوتهم في ملاقات العدو: (لقينا العدو، قتلنا طائفة، أسرنا طائفة، لحقت طائفة برؤوس الجبال). وفيه ما يدل على تمكن المسلمين منهم، ويوحى بسيطرتهم على أعدائهم حتى كتب الله لهم النصر.

وقد توافرت لهذه الصورة العناصر التي تتميزها وتثريها، فبدا عنصر (الحركة) واضحا في الكلمات: (فلقينا/ قتلنا/أسرنا/ لحقت)، كما توفر لها عنصر (الصوت) والذي يبدو ضمنيا من وراء الألفاظ، حيث أصوات القتل والضرب، وصليل السيوف، وصهيل الخيول، والكر والفر، هذه الحركات والأصوات لها دورها في جعل الصورة حافلة بالظلال، والحيوية، والوضوح.

ومن ذلك قول خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) إلى عبد الملك يخبره بأمره مع الأزارقة: «أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنني خرجت إلى الأزارقة الذين مرقوا من الدين، وخرجوا من ولاية المسلمين، فالتقينا بمدينة الأهواز، تناهضنا، فاقتتلنا كأشد قتالٍ كان في الناس، ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين، وضرب الله وجوه أعدائه، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم ولا يمنعون ولا يمتنعون، وأفاء الله ما في عسكريهم على المسلمين»^(٢).

التقى الجمعان، وحمي الوطيس، وحمل المسلمون على الأزارقة، حتى استطاعوا أن يردوا زحفهم، ويصموهم بالخزي والعار، والذل والنشار، ومن الله - تعالى - عليهم

(١) من قادة الأمويين، ولاه عبد الملك بن مروان البصرة وأعمالها (٧١هـ) ثم عزله عنها. ينظر: تاريخ الطبري/٦/١٦٥.

(٢) تاريخ الطبري/٦/١٧٢، ١٧٣.

بالنصر والظفر. واللغة التي استعان بها القائد تؤكد على شدة القتال وضراوته، وتصف حالهم مع القوم: (التقينا، تناهضنا، اقتتلنا، أشد القتال، يقتلونهم ولا يمنعون، ولا يمتنعون، أفاء الله عليهم)، وهي تعبيرات تكشف عن شدة القتال، واستبسال الجنود، والدفاع عن بلادهم ضد هذا العدو الذي فتن المؤمنين في دينهم، وبات شوكة في جسدكم، كادت أن تفرق جماعتهم.

وكان لحدث القائد الجند على الاستبسال، والجد في قتال هؤلاء المارقين أثر واضح في كسر شوكتهم، وإحراق الهزيمة بهم، وتمزيقهم كل ممزق، وتشثيتهم في القرى والشعور، وبطون الأودية، والجبال: "فاتبعهم المسلمون يقتلونهم ولا يمنعون ولا يمتنعون، وأفاء الله ما في عسكرهم على المسلمين".

خامسا- الاستنجاد وطلب المدد

قد يتكالب العدو على المسلمين، وقد يحاصره ويضيق عليهم، ويطول الحصار، أو يظهروا عليهم لقلّة عددهم أو عدّتهم، أو لهوانهم وضعفهم، وهذا أمر طبيعي، فالحروب قد تطول، وتستنزف من طاقات الجيوش، وأرواح الجند، وأدوات الحرب، فيلجأ القائد إلى طلب المدد والعون.

ومن ذلك قول الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في إمداد الجيش في سجستان: "أما بعد، فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل، وقد اجترأ العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام، فدخلوا بلادهم، وغلبوا على كل حصونهم وقصورهم، وقد أردت أن أوجه إليهم جنداً كثيفاً من أهل مصرين-يعني البصرة والكوفة- فأحببت أن أستطلع رأي أمير المؤمنين في ذلك"^(١).

(١) لما غزا عبيد الله بن أبي بكر سجستان سنة (٧٨هـ) وتوغل في بلادهم، وغلب على أرض من أرضهم وغنم غنما كثيراً، أصيب من المسلمين الكثير، ولم ينج منهم إلا القليل، وعلم الحجاج فكتب إلى عبد الملك يستأذنه في إمدادهم. تاريخ الطبري ٣٢٣/٦، ٣٢٤. جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت ١٨٦/٢، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

تمكن العدو من جيش المسلمين، واشتدت شوكته عليهم، وأصيب الجند، ولم ينج إلا القليل، فكان الاستتجاد وطلب المدد هو الأولى في مثل هذا الموقف، حتى يتمكنوا من مواصلة القتال وصد هجمات الأعداء. والصياغة التعبيرية تكشف عن حال المسلمين وما كان من أمرهم مع العدو: (أصيبوا، لم ينج إلا القليل، اجترأ عليهم العدو، دخلوا بلادهم، غلبوا على حصونهم) وهي تؤكد على تمكن العدو من المسلمين، كما توحى بحال المسلمين السيئ، الذي يقضي بحتمية طلب المدد والعون.

فلما أذن عبد الملك للحجاج جهّز عشرين ألف رجل من أهل الكوفة، ومثلهم من أهل البصرة، وجدّ في ذلك وشمّر، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فخرج بهم حتى قدم سجستان، فتوغل بهم في أرض العدو، وحازوا من أرضه أرضاً عظيمة، وغنائم وفيرة، وأتم الله نوره رغم أنف الكافرين، وكان النصر حليف المسلمين، وجند الله هم الغالبون، والحمد لله رب العالمين^(١).

ومن ذلك أيضاً كتاب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير: "إن الأمم قد تداعت علينا من كل جانب، فالغوثنُ الغوث"^(٢).

كتاب موجز صريح، أبان عن حاجة القائد، وهو طلب الغوث والنجدة، فقد تكاثرت الأعداء عليه من كل جانب، ولا قبل له بهم، ويؤكد أن الجند في خطرٍ محقق، ولما وصل الكتاب لموسى نادى في الناس وعسكر، وجاءته الجموع من كل جانب، فسار إليه وأمدّه بجيش كثيف، حتى فتح الله لهم بلاداً كثيرة، ومنّ الله عليهم بغنائم وفيرة^(٣).

(١) كان ذلك في عام (٨٠هـ). ينظر: تاريخ الطبري ٦/٣٢٨.

(٢) الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء لابن قتيبة الدّينوري، تحقيق: علي شيري ٨٨/٢، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. نفع الطيب ١/٢٣٢.

(٣) توغّلوا في الفتوحات حتى وصلوا طليطلة وكان ذلك في (٩٣هـ). ينظر: الإمامة والسياسة ٨٨/٢.

إن كتب المدد والاستجداء تتسم بالإيجاز الواضح، واللفظ الصريح، فالأمر جلي، والخطب عظيم، فلا مجال لكثير كلام، والمعنى الذي يؤدي بكلمة واحدة لا يؤدي بكلمتين، والكاتب في مثل هذا الموقف يكتب ما يفى بالغرض، ويشرح الموقف، ويؤدي المعنى المطلوب الذي يكشف عن غرضه بأوجز لفظ وأبينه.

سادسا- القائد مقدام لا يخشى الوغى، وأول من يحمل على العدو

القائد في ميادين الوغى، وساح القتال ذو سمت خاص يميزه من غيره، فهو في موقع حساس، يفنقر إلى عقل رزين، وفكر قويم، وتصرفٍ حكيم، شجاع لا يهاب الردى، قوي الشكيمة، ألفت ملاقاته الأعداء، واعتاد خوض المعارك.

ذكروا أن موسى بن نصير^(١) لما قدم أفريقية، ونظر إلى جبالها، وإلى ما حولها، جمع الناس وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، إنما كان قبلي على أفريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطيّة، ويكره أن يكلم، ويحب أن يسلم، أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راضٍ بالهوينى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو، ويسلم دون أن يكلم أو يكلم، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلا في حزمه، جازما في عزمه، مستزيذا في علمه، مستشيروا لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكا بتجاربه، ليس بالمتجانبين إقحاما، ولا بالمتخاذل إقحاما، إن ظفر لم يزدّه الظفر إلا حذرا، وإن نُكِبَ أظهرَ جلادةً وصبرا، راجيا من الله حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

(١) من التابعين؛ كان عاقلا، كريما، شجاعا، ورعا، تقيا، تولى إفريقية والمغرب، صاحب الفتوحات في بلاد المغرب والأندلس هو ومولاه طارق، (ت ٩٩هـ)، ينظر في ترجمته: بغية الملتمس ص ٤٥٧.

البيان المغرب لابن عذارى ٣٩/١. وفيات الأعيان ٣١٨/٥ وما بعدها.

(٢) الإمامة والسياسة: ٧٣/٢. والقرآن الكريم من الآية (٤٩) سورة هود.

إن موسى يرسم صورة لما يجب أن يكون عليه القائد في ميادين الوغى، وساح الحروب والمعارك؛ وإذا كانت للألفاظ إichاءات ودلالات وظلال بما تحمله من تأثير، وبما تملكه من طاقة تعبيرية ورحابة معنوية غنية الدلالة، فالألفاظ والعبارات (اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو، ويسلم دون أن يكلم أو يكلم) تكشف عن أن أcha الحرب لا يرض بالهوينى، اعتاد خوض المعارك، وتنفس غبارها، له مع الأعداء في ميادين الهيجا، وساحات القتال صولات وجولات.

والعبارات: (متوكلا في حزمه، جازما في عزمه، مستزيذا في علمه، مستشيرا لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكا بتجاربه) توحى بأنه لا مجال للتردد في أمر الحرب ومجابهة العدو، فالحزم والشدة، مع التأنى والتروي، ومشاورة أهل الخبرة، وأرياب الحكمة، مع التوكل على الله أمور لا غنى عنها في ميادين القتال، وهو (ليس بالمتجاين إقحاما، ولا بالمتخاذل إحجاما) مقدام لا يخشى الردى، ولا يهاب الوغى، فالجبن والتخاذل لا سبيل إليهما في مواجهة العدو.

وقوله: (إن ظفر لم يزهه الظفر إلا حذرا، وإن نكب أظهر جلادة وصبرا، راجيا من الله حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين) فيه ما يدعو إلى الحذر من عدوه، وإن ظفر به، وانتصر عليه، ولتكن نصره الإسلام غايته، ورفع راية المسلمين قبلته، ووصم أعداء الله بالخزي والعار والخذلان هدفه، والتوكل على الله والصبر والصدق سبيله للنصر والظفر على الأعداء.

والقائد في ساح الوغى هو الأولى بالهجوم على العدو، محرصًا حاملا على الأعداء متى ما سنحت الفرصة، والنقى الجمعان، فهو الأسوة للجنود، وهو القدوة في القتال. يقول طارق بن زياد: "واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأتي عند ملتقى الجمعين، حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لُدْرِيق؛ فقاتلَهُ إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكتُ بعده، فقد كفيتم أمره، ولن يعوزكم بطلٌ عاقلٌ تسندون أموركم إليه،

وإن هلكت قبل وصولي إليه، فاخلفوني في عزيمة هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون" (١).

إن طارقا يقدم نموذجا للقائد المسلم في الشجاعة والإقدام، من خلال إقدامه على قتل لذريق بنفسه، فهو (أول مجيب، حامل بنفسه، فقاتله)، وعلى الجند أن يحملوا معه، ثم يرسم لهم ما ينبغي عليهم فعله إن هو هلك وقتل، فلا يجزعوا، ولكن يستبسببوا: (واحملوا بأنفسكم، واكتفوا المهم)، فإذا هلك القائد تخاذل أتباعه وتقهقروا، ثم تهب رياح النصر بعد ذلك إن شاء الله. وقد أكد على ذلك الحجاج في كتابه إلى قتيبة بن مسلم: "إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش، وإذا قفلت راجعاً فكن في ساقية الجيش، لتكون رداءً لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد" (٢).

قال المقرئ: "فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه، وما وعدهم من الخير الجزيل: انبسطت نفوسهم، وتحققت آمالهم، وهبت رياح النصر عليهم" (٣).

آخرا- شكر الله- تعالى- على النصر، والتهنئة بالفتح

النصر على العدو والظفر به من النعم التي تستوجب شكر الله تعالى، وتدعو إلى البهجة بنصر الله وفتحه على المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَذِي قَرْنٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤). وشكر الله تعالى على نعمة النصر والتهنئة بالفتح من المضامين التي دار حولها نثر الفتوحات الإسلامية.

(١) وفيات الأعيان ٣٢٢/٥. نفع الطيب: ٢٤١/١.

(٢) تاريخ الطبري ٤٢٥/٦. البداية والنهاية ٢١٧/٩.

(٣) نفع الطيب: ٢٤١/١، ٢٤٢.

(٤) سورة الروم: من الآيتان (٤، ٥).

وقد شاع هذا اللون من الكتابات، وذلك لكثرة الفتوحات في العصر الأموي، فكان القادة يكتبون إلى الأمراء والولاة يخبرونهم بالفتح، مسجلين ما أحرزوه من السيطرة على الأعداء وحصونهم، وما فتحوه من قلاعهم، وما غنموه من أموالهم وديارهم، حامدين الله على نعمة النصر.

ومن ذلك ما كتبه يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بفتح جرجان وطبرستان ويحمد الله على هذه النعمة: «أما بعد، فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحًا عظيمًا، وصنع للمسلمين أحسن الصنع، فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه، أظهر في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان، وقد أعيا ذلك سائبور ذا الأكتاف، وكسرى بن قباد، وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله، حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين، كرامة من الله له، وزيادة في نعمه عليه، وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله»^(١).

كان يزيد بن المهلب كأبيه شجاعة وبأسًا، وعلمًا وخلقًا، وفضلاً، ولاء سليمان خراسان، فأبلى بلاء حسنا، وفتح الله للإسلام فتحا عظيما، كان صعبًا منيعًا، فقد أعيت جرجان وطبرستان - من أرض خراسان - الأبطال والفرسان من قبله، وشغل فتحها الأفتدة، وظلت أبوابها موصدة، تأبي على الفرسان حتى أتم الله فتحها على يد يزيد، فكان فتحًا عظيمًا ونصرًا عزيزًا مؤزرا للإسلام والمسلمين، وفرح المسلمون بنصر الله، وارتفع شأنهم في هذه البقاع النائية، وعلا صوت الإسلام، فكان نصرًا يستوجب الشكر

(١) تاريخ الطبري ٥٤٤/٦. جمهرة رسائل العرب ٢/٢٦٠، وقد أتم الله فتحهما على المسلمين (٩٨هـ).
ينظر: تاريخ الطبري ٥٤٤/٦. وينظر خبر (سابور) في الكامل لابن الأثير ١/٣٠٥، وكسرى بن قباد ١/٣٣٦، وكسرى بن هرمز ١/٣٨٣.

والحمد، وهو يخبره بالفيء الوفير الذي من الله به على المسلمين: (كرامة من الله، وزيادة في النعمة) فالحمد لله على ما مَنَحَهُ من مراتب الفضل، وما بَلَغَهُ من مدارج الطَوْل.

ومن ذلك قول عبد الحميد الكاتب^(١) في التهئة بفتح: «أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام ديناً، رضي شرائعهُ، وبيّن أحكامهُ، ونور هداةهُ، ثم كنفهُ بالعزّ المؤيّد، وأيدهُ بالظفرِ القاهرِ، وآزرهُ بالسعادةِ المُتَجَبِّةِ، وجعلَ من قام به داعياً إليه، من جندهِ الغالبيينَ، وأنصارِهِ المسلّطينَ، كلّما قَهَرَ بهم مُناوئاً أورثهم رِباعَهُم المأهولةَ، وأموالهم الثريّةَ، ودارهم الفسيحةَ، ودولتهم المطوّلةَ، أمراً حَتَمَهُ على نفسه»^(٢).

يستهل الكاتب كتابه بحمد الله تعالى على نعمة الفتح التي لا تطاولها نعمة، ولا تجاريها رغبة، فقد أيد الله أهل الإيمان بنصره، وآزرهم بفضله، وأدلّ به رقباب المشركين، وشفى به صدور قوم مؤمنين، وأورثهم أرض أعدائهم وديارهم وأموالهم، وهو استهلال يتواءم مع الموقف، فالحمد لله على نصره العظيم، وفتحه المبين الذي أتمه على المسلمين، فأعز به الإسلام، ورفع شأن المسلمين.

ثم يعرض الكاتب لحال أهل الشرك وأهل الإيمان فيقول: «ثم جعل من عاندَهُم، وابتغى غير سبيلهم مُسلماً قد استهوتهُ ذلّة الكفرِ بِظُلْمِها، وحيرةُ الجهالةِ بِجورِها، وتيهُ الشقاءِ بِمَعاوِيهِ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً، ازدادَ الحقُّ إليهم ازدلاقاً، وعليهم عُكوفاً، وفيهم إقامةً، إلى أن يحلَّ بهم عِزُّ الغلبةِ، ونجاةُ المجتازِ، داعين فيما شوقهم إليه، محافظين على ما ندبهم له، قد بذلوا في طاعة الله دماءهم، وقبلوا المعروض

(١) كان إماماً في فن الكتابة، وبه يضرب المثل في البلاغة والكتابة (ت ١٣٢هـ) ينظر في ترجمته: وفيات الأعيان ٢٢٨/٣، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ٢٥٣/٣، القاهرة، الثالثة ١٩٥٣م.

(٢) كنفه: حفظه. المنتجة: المختارة. ناوَاهُ: عاداه. المناوئ المعادي. رباعهم: الرباع: جمع ربع وهو المنزل. المُسلّم: المخذول أسلمه: خذله.

عليهم في مبايعة ربه لهم بأنفسهم الجنة، محمود صبرهم، مُسهلٌ بهم عزمهم إلى خير الدنيا والآخرة^(١).

إن التعبير والتصوير يكشفان عن حال الفريقين: فأهل الشرك والضلالة: (استهوتهم ذلة الكفر، وحيرة الجهالة، وتيه الشقاء، فهم عن دعوة الحق معرضون) أما أهل الإيمان فهم: (أقرب إلى الحق سبيلا، داعين، محافظين، بذلوا دماءهم، قبلوا مبايعة ربه، باعوا أنفسهم بالجنة، محمود صبرهم، مسهل عزمهم) وهو تصوير كاشف للموقف، معبر عن حال الفريقين، يصم أهل الشرك بالخزي والعار، والذل والنشار، مؤكداً على حال المؤمنين وثباتهم وتفانيهم في الدفاع عن دين الله.

وواضح تأثر الكاتب البيّن بالقرآن الكريم في قوله: (اصطفى الإسلام ديناً)، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢)، وقوله: (أورثهم رباعهم المأهولة، وأموالهم الثرية، ودارهم الفسيحة)، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوهَا﴾^(٣)، وقوله: (وقبلوا المعروض عليهم في مبايعة ربه لهم بأنفسهم الجنة) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾^(٤) الآية. وفي هذا ما يضيف على أسلوب الكاتب القوة والرسوخ، ويبرز المعنى، ويؤكد الفكرة،

(١) المنثور والمنظوم، القسم الأول من الجزء الثالث عشر لابن طيفور دراسة وتحقيق: ضيف الله سعد حامد الحارثي (ماجستير)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. جمهرة رسائل العرب ٢/٤٧٠، ٤٧١. المسلم: المخذول. أسلمه: خذله. ينظر نماذج أخرى: المنثور والمنظوم: ص ٦٩، ٩٧، والسابق: ٢/٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) سورة المائدة: من الآية (٣).

(٣) سورة الأحزاب: من الآية (٢٧).

(٤) سورة التوبة: من الآية (١١١).

فالحمد لله الذي أعز جنده، ونصر عباده المؤمنين، وقضى لهم بالعلو والتمكين، وهزم حزب الكفر والشياطين، وجعلهم في ذل وصغار، وتيه وهوان، إنه عزيز ذو انتقام.

إن نثر الفتوحات الإسلامية جاء مصورا حال الخلفاء والولاة والقادة مع أعداء الله، وحرصهم على نصرته دينه، ونشر دين الإسلام في شتى بقاع الأرض، وقد بدا القادة من خلال هذه النصوص رجالا ذوى شدة وبأس، وصرامة وخبرة، فرسانا في ميدان الكلمة كما هم كذلك في ميادين القتال، لا يشق لهم غبار، أشداء على الأعداء، حماة كفاة، قد صلوا بالحرب وألفوها، لم تقف دونهم الجسور والحصون والأسوار، ولم يتسرب اليأس إلى قلوبهم، وكانوا أسوة حسنة لجنودهم، ونموذجا يحتذى في الدفاع عن دين الله، والحمل على أعداء الإسلام. وقد اتسمت تعبيراتهم وأساليبهم بالإيحاء والتأثير، والظلال والدلالات الفياضة، بما يثير المعنى، ويرسخ الفكرة، ويكشف عن الصورة ويوضحها، وهي تؤكد أن هدف القائد هو الدفاع عن دين الله تعالى، فنصرة الإسلام غايته، ورفع راية المسلمين قبلته، ووصم أعداء الله بالخزي والعار والخذلان هدفه، والتوكل على الله - تعالى - والصبر والصدق سبيله للنصر والظفر.

المبحث الثاني: البناء الفني

أولاً- البدء

فاتحة العمل الفني هي اللبنة الأولى التي تأخذ بيد القارئ إلى مضمونه، ولها دورها في شد انتباهه وتهيئته لما يُلقى عليه. يقول ابن الأثير: "وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإنه متى كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه، وتزايدت البواعث على الإصغاء إليه"^(١).

وعلى الرغم من اختلاف نثر الفتوحات بين خطبة أو رسالة أو وصية، فقد كاد أن يتفق في المقدمات التي يتخذ فيها الكاتب من عناصر البسمة، والتحميد، والتحية، وغيرها براعة استهلال، وحسن ابتداء. وقد جاء الاستهلال في هذا النثر منوعاً؛ ومن ذلك:

أ- الاستهلال بالبسمة: ولعل ذلك اعتماداً على قول نبينا الكريم-صلى الله عليه وسلم:- "كل كلام أو أمر ذي بالٍ لا يفتح بذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهو أبتَر، أو قال: أقطع"^(٢). لذا استهل الكتاب (بالبسمة) تبركاً، أو طلباً للأجر، وهذا الاستفتاح خاص بالكتب والرسائل، وجاء كثيراً، ومنه كتاب عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة أن يَلِيَّ قتال الخوارج، يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة، سلام عليك"^(٣)، وكتاب الحجاج للمهلب لما تمت الغلبة له على

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د: مصطفى جواد، د: جميل سعيد، ص ١٨٨، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، العراق ١٣٥٧هـ - ١٩٥٦م .

(٢) المسند للإمام أحمد ٣٩٥/٨، حديث رقم (٨٦٩٧).

(٣) كتبه أهل البصرة على لسان ابن الزبير. ينظر: تاريخ الطبري ٦١٥/٥، جمهرة رسائل العرب

الأزرقة(١). وكذا كتابه لابن الأشعث(٢). ومن ذلك-أيضا- كتاب المهلب للحارث بن عبد الله يخبره بأمر القتال(٣)، وغيرها(٤).

ب- الاستهلال بالتحميد: من المقرر أن تستهل الخطب بالتحميد، فهو العنصر الرئيس في مقدمتها باستثناء خطب العيدين. يقول ابن وهب الكاتب: "فمن أوصاف الخطابة أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها وتعظم به الفائدة"(٥).

فيستهل الخطيب خطبته بالحمد ثم يتبعه بالثناء على الله تعالى، وغالبا أن تأتي الخطب خالية من نص التحميد والثناء وتأتي مصدرة بعبارة: "قام خطيباً فقال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه"، ولعل السبب يعود إلى صنيع النساخ والمؤرخين، إذ كانوا يلجؤون لذلك اختصارا، وتخففا من النسخ، ويعمدون مباشرة إلى نص الخطبة.

ومن نماذج ذلك خطبة عتاب بن ورقاء الذي يحض فيها على القتال ويحمس المجاهدين(٦). وخطبة عبد الرحمن بن الأشعث حين وجهه الحجاج إلى سجستان لحرب ملك الترك(٧). وخطبة موسى بن نصير لما قدم أفريقية، "جمع الناس ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس... الخ"(٨). وغيرها(٩). وندر الاستفتاح

(١) ينظر: الكامل للمبرد ٣: ٢٨٦.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٢٤٩. جمهرة رسائل العرب ٢/١٧٤.

(٣) ينظر: الكامل للمبرد ٣: ٢٣٦.

(٤) ينظر: تاريخ الطبري ٦/١٢٠.

(٥) البرهان في وجوه البيان: ابن وهب، تحقيق: د.حفني محمد شرف، ص١٥٣، مكتبة الشباب، القاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٦) ينظر: تاريخ الطبري: ٦/١٢٦. الكامل للمبرد: ٣/٢٤٥. والنص من الكامل.

(٧) ينظر: تاريخ الطبري: ٦/٣٢٨. جمهرة رسائل العرب ٢/١٨٦، ١٨٧.

(٨) الإمامة والسياسة: ٢/٧٣.

(٩) ينظر نماذج أخرى كتاب الفتوح ٧/١١٠، ١١١.

بالحمد في الكتب والوصايا الحربية، ومن ذلك: رسالة عبد الحميد الكاتب في التهئة بفتح، يقول فيها: "الحمد لله العليّ مكانه، المنير برهانه" الخ(١).

ج- وقد يُستهل بالنداء، وأكثر ذلك في الخطب، ومنه: خطبة عتّاب بن ورقاء: "يا أهل الإسلام: إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء"(٢). وخطبة المهلب يحث جنده على قتال العدو(٣)، وخطبة الحجاج في أهل الكوفة يحضهم على الخروج للقتال استهلها بقوله: "يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء"(٤). وخطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس(٥).

د- الاستهلال (بأما بعد): وشاع الاستهلال بها في الكتب والرسائل. ومن ذلك كتاب المهلب محمسا الجند لقتال الخوارج الأزارقة(٦)، وكتاب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بفتح جرجان وطبرستان ويحمد الله على نعمة الفتح(٧)، وكتاب عبد الحميد الكاتب في التهئة بفتح(٨). ورسالته على لسان مروان بن محمد إلى وليّ عهده، وفيها من النصائح والتوجيهات السياسية والحربية ما يجعلها أساساً في تعبئة الجيوش وتنظيمها(٩). وغير ذلك(١٠).

(١) جمهرة رسائل العرب ٤٧٠/٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٦٣/٦ . جمهرة خطب العرب: ٤٤٥/٢ .

(٣) الكامل للمبرد ٢٢٧/٣ . جمهرة خطب العرب ٤٢٩/٢ ، ٤٣٠ .

(٤) تاريخ الطبري: ٢٦٢/٦ . جمهرة خطب العرب ٤٤٤/٢ .

(٥) ينظر: وفيات الأعيان ٣٢١/٥ ، ٣٢٢ . نفع الطيب ٢٤٠/١ ، ٢٤١ .

(٦) ينظر: تاريخ الطبري ٦١٨/٥ . البداية والنهاية ٧/٩ .

(٧) ينظر: تاريخ الطبري ٥٤٤/٦ . جمهرة رسائل العرب ٢٦٠/٢ .

(٨) ينظر: جمهرة رسائل العرب ٤٧٠/٢ ، ٤٧١ .

(٩) وهي رسالة طويلة. ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي: ١٠/١٩٥-٢٣٣، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٤هـ- ١٩١٦م.

(١٠) ينظر نماذج أخرى: تاريخ الطبري ١٧٢/٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ . جمهرة رسائل العرب ١٠٢/٢ ، ١٣٢ ،

هـ - كما جاء بعض هذا النثر خالياً من هذه الابتداءات؛ فيعمد الكاتب والخطيب إلى عرضه مباشرة دون تقديم، ومن ذلك ما كتبه مسلم بن عبيس (١) في الحزب على الجهاد (٢). وكتاب المهلب إلى الحجاج في أمر الخوارج (٣)، وقول يزيد بن المهلب إلى الحجاج يعلمه بفتح بعض الحصون: «إِنَّا لَقِيْنَا الْعَدُوَّ، فَمِنْحًا اللَّهُ أَكْتَأَفَهُمْ...» الخ (٤). ومن ذلك -أيضاً- خطب قتبية بن مسلم الباهلي فقد خلت من هذه الابتداءات (٥). ولعل السبب في خلو هذا النثر من الابتداء يعود إلى صنيع النساخ والمؤرخين كما ذكرت، إذ كانوا يلجؤون لذلك اختصاراً، وتخففاً من النسخ، وقد يكون السبب هو ما تنطوي عليه نفس الكاتب من فوران الصدر، وقوة الشعور، فيعبر عما في نفسه مباشرة دون تقديم أو استهلال!

ثانياً- الانتقال

البدء والختام لا بد أن يرتبطا ارتباطاً وثيقاً بالمضمون، فيكون بينهما تواؤم وترايط واضح، وقد اصطلح النقاد على تسمية الرابط بينهما بما يسمى: حسن الخروج، أو حسن الانتقال، أو حسن التخلص (٦).

وأكثر ما كان ينتقل به الكتاب في هذا النثر: الانتقال (بالبعدية) أما بعد، فهذه الصيغة هي التي تطل برأسها في أكثر الخطب والمكاتبات، وقد كثر وقوعها بعد

(١) تولى إمارة البصرة، وقتال الخوارج وكان من الصادقين في قتال العدو (ت ٦٥هـ) ينظر: تاريخ الطبري ٥/٦١٣، ٦١٤. والكامل لابن الأثير ٤/١٦.

(٢) الكامل للمبرد ٣/٢١٢، ٢١٣. جمهرة خطب العرب ٢/٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) ينظر: الكامل للمبرد ٣/٢٦٥، ٢٦٦.

(٤) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٣٨٧، الكامل لابن الأثير: ٤/٢٢٥.

(٥) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٢٤، ٤٧٢، ٤٧٧، ٤٧٣.

(٦) ينظر: مواد البيان: علي بن خلف الكاتب، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، ص ٢٦٦، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ١٩٨٢م.

عناصر البدء: البسمة، والتحية، وفي أحيان كثيرة يستهل بها الكاتب رسالته- كما ذكرت- وقد تتصدر الخطبة أحيانا.

ومن ذلك كتاب المهلب إلى الحجاج يبشره بالنصر، يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الكافي بالإسلام... أما بعد، فقد كان من أمرنا ما قد بلغك.. الخ (١) وكتاب عبد الله بن الزبير إلى المهلب يأمره بقتال الخوارج (٢)، وكتاب المهلب للحارث بن عبد الله يخبره بقتاله الأزرقه وتغلبه عليهم (٣)، وخطبة عتاب بن رقاء في التحريض على القتال (٤)، وخطبة المهلب محمسا الجند (٥).

وقد يدخل الكاتب في موضوعه مباشرة؛ ومن ذلك خطبة عتاب بن رقاء في تحميس الناس لقتال الخوارج (٦)، وخطب قتيبة بن مسلم (٧). وبعض كتب الاستجداء وطلب المدد (٨).

ثالثا- الختام

إذا كان الكاتب أو الخطيب يحرص في مقدمته على إثارة المتلقي وشد انتباهه، فإنه حريص أن تكون الخاتمة مؤذنة بتمام موضوعه، وعليه أن يجعل ختامه حسنا بليغا، لان الخاتمة "هي آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر

(١) الكامل للمبرد ٣: ٢٨٦.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري ٦١٥/٥ جمهرة رسائل العرب ٩٨/٢.

(٣) ينظر: الكامل للمبرد ٣: ٢٣٦.

(٤) ينظر: تاريخ الطبري: ١٢٦/٦. الكامل للمبرد: ٢٤٥/٣.

(٥) ينظر: تاريخ الطبري ٦١٨/٥. البداية والنهاية ٧/٩. وينظر نماذج أخرى: جمهرة رسائل العرب ٩٨/٢، ٩٩.

(٦) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٢٦٣، ٢٦٤.

(٧) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٢٤، ٤٧٣، ٤٧٧.

(٨) ينظر: الإمامة والسياسة ٨٨/٢. نفع الطيب ٢٣٢/١.

الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها" (١)، وقد جاءت خواتيم نثر الفتوحات متنوعة، منها:

أ- أن يختم الكاتب بالتحية، وهي قوله: (والسلام، أو والسلام عليك، أو والسلام عليكم ورحمة الله). ومن ذلك ختام كتاب الحجاج لابن الأشعث (٢)، وكتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله يصف له القتال (٣). وختام رسالة عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد إلى وليّ عهده (٤).

ب- وقد يختم بآية أو بعض آية من القرآن الكريم، وهو من الخواتيم الحسنة، كما في خطبة لقتيبة بن مسلم (٥)، ووصية عبد الملك بن مروان ولده مسلمة حين سيره لقتال الروم (٦). ﴿ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِدَبْرَةٍ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٧).

ج- وقد يختم بالحض على الجهاد والجد في قتال العدو كما في ختام خطبة قتيبة بن مسلم حين عزم على غزو طُخارستان (٨)، وخطبته حين سارت إليه جيوش فرغانه (٩).

-
- (١) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصعب المصري تحقيق د. حفني محمد شرف، ص ٦١٦، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٩٨٣ م.
- (٢) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٢٤٩. جمهرة رسائل العرب ٢/١٧٤.
- (٣) الكامل للمبرد ٣: ٢٣٦.
- (٤) ينظر: صبح الأعشى: ١٠/١٩٥-٢٣٣.
- (٥) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٧٣. جمهرة رسائل العرب ٢/٢٩١.
- (٦) ينظر كتاب الفتوح ٧/١١٠، ١١١.
- (٧) سورة الأنفال: الآية (١٦).
- (٨) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٧٣. جمهرة رسائل العرب ٢/٢٩٢.
- (٩) ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٧٧. جمهرة رسائل العرب ٢/٢٩١.

د- وقد لا يختم بشيء من هذه الأمور، فيكون نهاية كلامه هو ختام رسالته، ومن ذلك ختام خطبة مسلم بن عبيس في الحز على الجهاد(١)؛ وختام كتاب الحجاج إلى المهلب يستبطنه في مناجزة العدو(٢)، وخطبة ابن الأشعث في الحز على القتال أيضا(٣). وختام خطبة المهلب في قتال الأزارقة(٤)، وختام خطبة طارق بن زياد(٥).

ويبدو لي من العرض السابق أن الكاتب أو الخطيب لم يعن غالبا بالتأنق في رسالته أو خطبته من حيث الشكل، فنثر الفتوحات أغلبه يقال في الحرب، ولم تكن الفرصة سانحة لاختيار الكلمات والعبارات، فلم يلتزم الكتاب بالشكل المتعارف عليه- غالبا- وإنما حسبما تدعو إليه الحاجة، ويقتضيه الموقف، ذلك أن أغلب هذا النثر سُطر بين أسنة السيوف والرماح، وتحت حرارة الشمس وشدة الرياح، لذا جاء في كلمات واضحة وعبارات قوية، تحميسا للمجاهدين على القتال ومصاحبة الهيجا، والاستبسال في ملاقات عدوهم، والتفاني في الدفاع عن دين ربهم.

(١) ينظر: الكامل للمبرد ٣/٢١٢، ٢١٣. جمهرة خطب العرب ٢/٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) ينظر: الكامل للمبرد ٣/٢٨٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٦/٣٢٨. جمهرة رسائل العرب ٢/١٨٦، ١٨٧.

(٤) ينظر: الكامل للمبرد ٣/٢٢٧، ٢١٣.

(٥) ينظر: وفيات الأعيان ٥/٣٢١، ٣٢٢. نفع الطيب ١/٢٤٠، ٢٤١.

المبحث الثالث: ظواهر فنية

يتشكل التصوير الفني من مكونات وعناصر تتأزر وتتحد جميعها لتنتج في النهاية المعاني المتألفة التي تنثري الفكر، وتقوي الشعور، وتمتع الإحساس، وذلك من خلال تجربة مرت بالأديب، تحرك بها وجدانه، ومارت بها عواطفه، اصطنع لها سياقاً بيانياً قوامه الألفاظ، والتراكيب، والأساليب التعبيرية، والرمز الإيحائي الذي يتولد عن الألفاظ والعبارات، وكل ما استعان به في تكوين صورته، من الإيقاع الموسيقي، وما يدخل معجمه الأسلوبية، وما يزين الصورة من محسنات بديعية، وغيرها من مكونات الصورة^(١).

وقد عبر الكتاب والخطباء عن تجربتهم في قالب أدبي ينبئ عن انفعال حقيقي بالمواقف التي يعالجونها، والفكرة التي يرومون التعبير عنها، وقد استعانوا بالوسائل المنوعة، وأنماط التصوير المختلفة التي أعانتهم في نقل تجربتهم، والبوح بما في نفوسهم من أفكار ومعان، وأحاول في هذه المبحث الوقوف مع أبرز هذه الوسائل والظواهر الأسلوبية والفنية.

أولاً- بروز المعجم الإسلامي

برز المعجم الإسلامي واضحاً في نثر الفتوحات الإسلامية، وهذا أمر طبيعي، فالخطيب أو الكاتب يستعين بالألفاظ والمعاني الإسلامية، والقرآن الكريم ومعانيه، مؤكداً فضل الجهاد، مرغبا فيه، ومذكرا بثوابه العظيم، ومبشرا بنصر الله، ومرغبا في الشهادة، ومصورا أجر الشهداء عند ربهم، مما كان له الأثر الواضح في التأثير في نفوس المجاهدين وتحفيزهم إلى الجهاد.

(١) ينظر: من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد، ص ٢٨٣، دار الطباعة

المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

فمن الألفاظ التي تحض على الجهاد وفضله: أهل الإسلام، ندبكم الله للجهاد، تتجزوا موعود ربكم، فضل المجاهدين، شمروا، نيات صادقة، أحسن الثواب، أعظم الذخر. وهي توحى بحماسة الخطيب، وتكشف عن حرصه الشديد على القتال والنصر، وتحميس الجند، وتؤكد على فضل الجهاد وثوابه العظيم.

ومن الألفاظ التي تحض على الصبر والصدق والثبات والإقدام: اصبروا، بصدق وصبر، ببسالة وعزم وصدق، اثبتوا... الخ. هذه الألفاظ تكشف عن أن الصبر، والصدق، والاستبسال في مجابهة الأعداء سبيل النصر، وطريق الظفر، وهذه الصفات إنما تهون على النفس وتسهل في سبيل نيل درجة المجاهدين، أو الشهادة في سبيل رب العالمين.

ومن الألفاظ التي تدل على أعمال القتل في العدو: أعداء الإسلام، قتلنا طائفة، أسرنا طائفة، أبدان شداد، سيوف حداد، ذلا وهوانًا، شر قتلة، شردهم كل مشرد. وهي توحى بإعمال السيف في رقاب الأعداء، وقتلهم أشد قتال، وتكشف عن سوء عاقبتهم، كما تشف عن شجاعة المقاتلين واستبسالهم للدفاع عن دين الله تعالى.

ومن هذه الألفاظ ما يصم العدو بالبغي والعدوان: لقينا العدو، مجابهة عدوهم، أهل المعصية، أهل النار، شرار أهل الأرض، العصاة البغاة. وهي تكشف عن بغي العدو وعدوانه، فقد طغى في البلاد، وقتل في العباد، وسعى في الأرض فسادا، فكان أن حُشدت الطاقات لقتاله، وصد بغيه وعدوانه.

ومنها ألفاظ التبشير بالفتح والتهنئة بالنصر: إعلاء كلمة الحق، أهل الطاعة، الظفر، النصر، ظفرنا عليهم، بذلوا دماءهم، باعوا أنفسهم بالجنة، أعز الإسلام، رفع شأن المسلمين. وهي توحى بالنصر على الأعداء، وصدق المقاتلين في دفاعهم عن دين ربهم، واستبشارهم بنصرة الإسلام والتمكين للمسلمين.

هذه الألفاظ والمفردات تدور في دائرة الإسلام، والدعوة إلى الجهاد والحض عليه، والثبات في ميدان المعركة، وبذل النفس في سبيل الله ابتغاء رضوان الله -تعالى- ونيل

درجة الشهداء، أو النصر والظفر على العدو، وقد جاءت هذه الألفاظ كاشفة للموقف، معبرة عن حماسة الكاتب والخطيب، مؤكدة على تفاني المجاهدين في الدفاع عن دين الله، ورفع راية الإسلام والمسلمين.

ثانيا - التأثر بالقرآن الكريم

وهذا أمر طبيعي؛- يدخل ضمن الأثر الإسلامي الواضح في هذا النثر- وهو مصدر مهم من مصادر تشكيل الصورة، ذلك أن نثر الفتوحات الإسلامية يدور حول الدعوة إلى الجهاد، والحض عليه، وشحن همم الجنود والهباب عزائمهم، وتحقير الدنيا، والإقبال على الآخرة. ونيل جزاء الجهاد العظيم، أو الشهادة في سبيل الله تعالى، والمتحدث في مثل هذه الموضوعات يهتدي بهدي القرآن الكريم، فيأخذ من ألفاظه، ويستلهم من معانيه وصوره، ذلك أنه "أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله- تعالى- في أثناء محاوراته، وفصول مكاتباته، والتَّمثُّلِ بنواهيهِ وأوامره، والذكر لقوارعه وزواجره، فهو حليّة الرسائل، وزينة الإنشاءات، وهو الذي يَشُدُّ قَوَى الكلام، وَيُبَيِّنُ صحته في الأفهام، فمتى خلت منه كانت عاطلةً من المحاسن، عاريةً من الفضائل؛ لأنه الحُجَّةُ التي لا تُدْحَضُ، والحقيقة التي لا تُرْفَضُ"^(١).

والمتأمل في هذا النثر يظهر له بوضوح حرص الكتاب والخطباء على الأخذ من آي الذكر الحكيم، واستلهام صورته ومعانيه، بل أضحي الاعتماد عليه سمة بارزة فيها، استجابة للحس الديني في نفوسهم، واتخاذهم منه قاعدة ينطلقون منها في حضهم على الجهاد ودعوتهم إليه، وتحميم الجند للقتال. وقد مرت بنا نماذج كثيرة بدا فيها أثر القرآن الكريم واضحا، ومنها قول قتيبة بن مسلم: "إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعز دينه... ووعد نبيه النصر.. فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

(١) القانون في ديوان الرسائل: علي بن منجب الصيرفي ت٥٤٢هـ، تحقيق: د.أيمن فؤاد سيد، ص٨،

الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

المُشْرِكُونَ ﴿١﴾، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب.. فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾^(٢).

فالخطيب يستشهد بأي الذكر الحكيم في تحميس الجند على الجهاد، وإيقاظ عزائمهم، وشحن همهم في ميادين الوغى وساحات القتال، مؤكدا على عظيم أجر المجاهدين وثواب الشهداء الجزيل عند ربهم، وفي هذا ما يكشف عن أهمية النص القرآني في نثر الفتوحات في إيقاظ الوازع الديني في نفوس المقاتلين، وتذكيرهم بفضل الجهاد وجزاء المجاهدين الذي أعده الله لهم.

ومن ذلك أيضا قول المهلب بن أبي صفرة محمسا الجند: "أما بعد: فإن الله ربما يكُلُّ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، إني لجماعتكم لراضٍ، وإنكم لأنتم أهل الصبر، وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحدا ممن انهزم معكم، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا"^(٤).

يحض المهلب الجند على القتال، ويحمسهم ويشد من أزرهم، وقد لجأ إلى القرآن الكريم يستقي من معانيه وصوره ما يشحن همهم، ويثبتهم أمام جحافل العدو، مؤكدا

(١) سورة التوبة: الآية (٣٣).

(٢) سورة التوبة: الآيتان (١١٩، ١٢٠).

(٣) تاريخ الطبري ٤٢٤/٦. والآية الكريمة (١٦٩) من سورة آل عمران.

(٤) تاريخ الطبري ٦١٨/٥. البداية والنهاية ٧/٩.

على أنهم أهل الصبر، وفرسان المصير، وبهم يكون النصر إن شاء الله، وفي هذا ما يبعث في نفوسهم حب القتال، ويقوّي من عزيمتهم على الجهاد، ويقربهم من النصر.

وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾^(٢) وكان لاعتماده على القرآن الكريم دوره في إثارة الوازع الديني في النفوس، وإلهاب العزائم، واستبسالهم في القتال. كما كان له دوره المهم في ترسيخ الفكرة، وإبراز المعني، ودعم الصورة.

لقد كان القرآن الكريم مصدرًا ثرا من مصادر الصورة في نثر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، اعتمد عليه الكتاب في تشكيل صورهم، والتعبير عن تجربتهم، ونماذج اعتمادهم على القرآن الكريم والأخذ منه، في حضهم على القتال، وشحذ همم المقاتلين كثيرة واضحة، تؤكد حرصهم على توظيف القرآن الكريم توظيفًا فنيًا يخدم أفكارهم، ويفي بأغراضهم^(٣).

ثالثًا- أساليب التعبير:

تنوعت أساليب التعبير التي وظفها الكتاب والخطباء للتعبير عن تجربتهم، والكشف عما يختلج في نفوسهم من انفعالات وتصورات. ومنها:

أ- الاستفهام: وسيلة من وسائل التعبير المهمة، يتخذها المتكلم سبيلًا لتثبيت الفكرة، وتلويحًا لطرق الأداء في التعبير، ولها دورها في إثارة الحركة في النص، وإيقاظ المتلقي، ومن نماذجه قول عتاب بن رقاء: "أيها الناس: ما تنتظرون؟!؛ والله ما تؤثون من قلة، وإنكم لفرسان عشائركم، ولقد حاربتموهم مرارًا فانتمصتتم منهم، وما بقي مع هذا

(١) سورة البقرة: من الآية (٢٤٩)

(٢) سورة التوبة: من الآية (٤٧)

(٣) ينظر نماذج أخرى: تاريخ الطبري: ٦/٣٦٣، ٤٧٢، ٤٧٣. جمهرة خطب العرب: ٢/٤٤٥. الإمامة والسياسة: ٢/٧٣، وغيرها.

الحصارِ إلا أن تُقنى ذخائركم فيموتُ أحدكم فيدفعه أخوه، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه، فقاتلوا القومَ وبكم قوة"^(١).

في أسلوب قوي حاسم يشد به الكاتب على أيدي الجند، تحميساً لهم على القتال، يستعين بالاستفهام (ما تنتظرون؟!); وهو استفهام فيه تقييد وتأنيب، يقذفه في وجوههم وقد تكاسلوا وتقاوسوا عن مواجهة عدوهم، يوقظهم ويحمسهم حتى يستبسلوا في مجابهة أعدائهم والحمل عليهم.

إن الاستفهام بـ(ما) من شأنه أن يقرع آذان المتلقي فيوقظه ويشده ليتفاعل مع ما يلقي عليه، وله دوره الواضح في تفخيم الأمر، والتأكيد على فداحته وشدته، وتأثيره في النفوس، وفيه ما يكشف عن انفعال القائد وغضبه، وينبئ عن ثورة عارمة مشتعلة بقلبه وجوانحه، وقد جاء كاشفاً للمعنى، مرسخاً للفكرة.

ومن ذلك قول طارق بن زياد: "أيها الناس، أين المفر؟! البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليسَ لكم والله إلا الصدق والصبر"^(٢).

فهو يحض الجند على القتال، ويحثهم على الصبر والصدق، فهما سبيل النصر، والاستفهام هنا بـ(أين) له دوره الواضح في تفخيم الأمر، والتأكيد على فداحته وشدته، وهو استفهام إنكاري ينفي أي سبيل للفرار، ويؤكد أنه لا مفر أمامهم إلا لقاء العدو والظفر به، والنصر، فلا سبيل أمامهم إلا المواجهة والقتال، ذلك أن البحر أمامهم، والعدو من خلفهم.

(١) تاريخ الطبري: ١٢٦/٦. الكامل للمبرد: ٢٤٥/٣. والنص من الكامل.

(٢) وفيات الأعيان ٣٢١/٥. نفع الطيب ٢٤٠/١.

هذا الاستفهام يؤكد على صدق الخطيب، واستعداده التام للمواجهة، ويوحى بإثارة المستمع وتحميسه، وله دوره في إيقاظ همتهم، وإلهاب عزائمهم، والاستبسال في مواجهة عدوهم.

ب- الأمر: وهو من الأساليب المهمة؛ يعتمد عليه الكتاب في أمر الجند أو نهيهم عن أمر ما، ومن ذلك قول الحجاج لعبد الرحمن بن الأشعث حين وجَّهه إلى سجستان يأمره بالوغول في أرض العدو: "فامض لما أمرتُكَ، من الوغُولِ في أرضهم، والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم"^(١).

أمرٌ بالوغول في أرض العدو، وهدم حصونه، وقتل مقاتلته، وسبي ذراريه، ويبدو ذلك واضحاً في تعبيره: (فامض) وفيه حض على التأهب للقتال، وحث على السمع والطاعة، وتبدو الشدة واضحة في أسلوبه، وهذا يستوجب الموقف، وتستدعيه الحاجة، ذلك أن الموقف موقف جهاد وقتال، فلا مجال للتهاون والتراخي.

ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان لأحد أمرائه الذين سيرهم إلى بلاد الروم: "أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجدَ ربحاً تجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكن من احتياك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك"^(٢).

فهو يحذره من الخوض بالجنود دون تفكير ورويّة، بل عليه أن يتروّى قبل أن يواجه عدوه، ولا يتعجل الغنيمة، ففي العجلة الهزيمة، وعليه أن يحافظ على جنوده بشتى السبل، وليحذر من كيد عدوه، فثمرة الحذر السلامة.

(١) تاريخ الطبري ٦/٣٣٥، جمهرة رسائل العرب ٢/١٨٨. ويعني أرض سجستان وقتال رُنبيل ملك الترك.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/١٠٩، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

ويبدو أسلوب الأمر والنهي واضحاً في تعبيرات الموصي: (كن كالمضارب، احتفظ، لا تطلب، كن من احتيالك) وهي تعبيرات تكشف عن عنايته بأمر جنده، وحرصه على انتصار جيشه، وعودته سالماً منتصراً، كما توحى بخبرته وتجربته للأمور .

وقول قتيبة يوصي جنده: "إذا غزوتم، فأطيلوا الأظفارَ، وقصّروا الشّعورَ، والحظّوا الناسَ شزراً، وكلموهم رمّزاً، واطعنوهم وخزاً"^(١).

أفعال الأمر: (أطيلوا، قصروا، الحظوا، كلموهم، واطعنوهم) للحض على فعل هذه الأمور، ذلك أنها نافعة في الحرب، وهي من الوصايا الحربية المهمة التي ينبغي أن يأخذ بها الجند في قتالهم لإرهاب عدوهم، والظفر عليه بإذن ربهم، وهي تكشف عن خبرة الموصي بأمر الحرب والقتال، وحظه من الحكمة والدربة، ورزانة العقل، وقوامة الفكر.

ج- أسلوب القسم: وقد بدا واضحاً في نثر الفتوحات الإسلامية؛ ومن ذلك قول الحجاج: "أيها الناس: والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم، أو لأبعثنّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع، وأصبر على اللأواء والغِيظِ منكم، فيقاتلون عدوكم، ويأكلون فيئكم. فقام إليه الناس من كل جانب؛ فقالوا: نحن نقاتلهم، ونعتبُ الأمير، فليندبنا الأمير إليهم، فإننا حيث سره"^(٢).

تحذير للجند من التهاون في قتال العدو، وحض على المواجهة بصدق وعزم، وإلا استبدلهم بجنود غيرهم أشد قوةً وبأساً، يدافعون عن أعراضهم وفيئهم. هذا القسم له دوره الواضح في شحذ الجند، وإثارة عزائمهم وحضهم على القتال، واستبسالهم في المواجهة ما استطاعوا لذلك سبيلاً، وهو يكشف عن عزم الحجاج الواضح على غزو عدوه، والحمل عليه.

(١) العقد الفريد ١/١٥٨.

(٢) تاريخ الطبري ٦/٢٥٨.

ومنه قول موسى بن نصير من خطبة: "وأيُّم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين"^(١).

في حظه الجند على القتال والاستبسال في لقاء العدو، يقسم القائد مثبِّتاً لعزائمهم، ألا يترك قلاع أهل الكفر حتى يضع أرفعها، ويقضي عليها، ويذل الكفر وأهله، ويفتحها على المسلمين، ويضمها إلى رقعة الإسلام، ويغيظ بغزوها قلوب الكافرين، ويشفي بفتحها صدور المؤمنين.

والقسم هنا يؤكد على صدق النية، ويوحى بالعزم على غزو بلاد الكفر وفتحها، كما يكشف عن الشدة في مواجهة أهل الكفر والكافرين، وفيه ما يضيف على كلام المتحدث القوة والرسوخ، ويميزه بالصدق والثبات، كما كان للقسم دوره في التأثير في نفوس المتلقين، بما يشد همهم، ويقوي عزائمهم.

د- المقابلة: من الوسائل الفنية الخصبة التي توضح المعنى، وترسخ الفكرة، ولها دوره المؤثر في الكشف عن المعنى، وإبراز الصورة بما يحدثه من الضدية التي تقع بين الألفاظ، إذ تثير القارئ، وتفاعنه، وتجذب انتباهه. ومن نماذجه قول مسلم بن عبيس من خطبة في الحز على الجهاد: "إني ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض/ومن أحب الحياة فليرجع"^(٢).

الخطيب يؤكد للجند أنه لا يبتغي شيئاً من عرض الدنيا، وإنما خرج للجهاد في سبيل الله، وهدفه إحدى الحسينين، النصر أو الشهادة في سبيل الله، والتضاد واضح في قوله: (فمن كان شأنه الجهاد فلينهض/ومن أحب الحياة فليرجع)، فقابل بين الجهاد

(١) الإمامة والسياسة ٧٣/٢ .

(٢) الكامل للمبرد ٢١٢/٣، ٢١٣. جمهرة خطب العرب ٤٢٨/٢، ٤٢٩. الامتيار هنا: جلب الطعام.

والحياة وكأنه ذاهب للموت، وهي مقابلة تكشف عن استعداده للشهادة في سبيل الله، وتتبى عن صدق نيته، وعزمه على الجهاد ونيل الشهادة في سبيل الله.

ومن ذلك قول الحجاج من خطبة: "يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتاب بن رقاء بأجمعكم، لا أرخص لأحدٍ من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا؛ ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، ألا وإن للناكل الهارب الهوان والجفوة"^(١).

أمر بالخروج إلى الجهاد، والتفاني في قتال العدو، والحض على الصبر والثبات في ميدان المعركة، والتحذير من التخلف عن الجهاد، والقتال ببسالة وعزيمة، والخطيب يتوسل بهذه المقابلة لتحفيز الجند، وتحميسهم لقتال العدو والاستبسال في مواجهتهم، فالمجاهد الصادق الصابر له الكرامة والحظوة، والمتعاس عن الجهاد، المتخاذل عن نصرة دين الله له الجفوة والهوان، والذل والصغار.

إن المقابلة تسهم في الكشف عن الصورة وإبرازها، ولها دورها في تثبيت عزائم الجند، وتحميسهم وإلهاب عزائمهم، كما تسهم في تشكيل التجربة، والكشف عن المعنى وترسيخ الفكرة في ذهن المتلقي.

رابعا- الاستعانة بالشعر

للشعر قيمة لا تنكر؛ لما يملكه من طاقات إيحائية، ودلالات وظلال فنية تثير في نفس المتلقي التأمل والدهشة والإمتاع، وقد استعانوا به في تحقيق معانيهم، وتشكيل صورهم، ووظفوه توظيفا فنيا يثريها، ويشد من أزرها، ويعضد أفكارها.

إن الكاتب- أو الخطيب- إذا كان حافظا للأشعارِ راوياً لها، يستشهد بما عساه يحسنُ الاستشهادُ به، فللمنظوم من البهجة في النفس، والوقع في القلب ما ليس للمنتور^(٢).

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٢/٦. جمهرة خطب العرب ٤٤٤/٢.

(٢) ينظر: القانون في ديوان الرسائل: ص ١١.

ومن ذلك قول الحجاج محذرا ومؤنبا ومقرعا: «أما بعد، فقد اعتدتم عادة الأذلاء، وولّيتم الدبر يوم الزحف، وذلك دأب الكافرين، وإني قد صفحتُ عنكم مرّة بعد مرّة، ومرّة بعد مرّة، وإني أقسم لكم بالله قسماً صادقا: لئن عدتم لذلك لأوقعنّ بكم إيقاعا يكون أشدّ عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه... وقد أعذر من أنذر: (من الوافر)

وقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي^(١)

تقريع وتأنيب، وزجر وتخويف، وأداء تعبيرية قوي، وأسلوب شديد اللهجة يخاطب به الحجاج أولئك الذين تقاعسوا أمام أعدائهم، وولّوا مدبرين: (اعتدتم، الأذلاء، وليتم الدبر، دأب الكافرين، صفحت عنكم، أقسم، قسما صادقا، لأوقعن، أعذر من أنذر) وهو تعبير يكشف عن تنازل القوم وتراجعهم، وعدم ثباتهم في ميدان المعركة، وفيه تحذير شديد يقرع آذان القوم ويرهبهم عن التقاعس في ميدان القتال، أو التهاون في ملاقات العدو. كما يكشف التكرار في قوله (وأني)، (مرّة بعد مرّة)، عن شدة غيظه وتألّمه من سوء فعلهم وتخاذلهم، وانهمالهم، لذا رأى وهو القائد المحنك أن الشدة هنا أوقع وأنجع. وقد استعان بالشعر الذي يتواءم مع الموقف، ويساهم في تثبيت الفكرة وتأكيد المعنى، وفيه ما يبين استنكاره لما هم عليهم واستهزائه بهم، في وصفهم بأنهم أحياء أموات لا يُقدّرون تحذيره، ويتباطئون في تحقيق أمره، وقد تآزر الشعر مع النثر في التعبير عن غرض الكاتب، كما كان له دوره في التأثير على الجند وتخويفهم، وتأنيبهم وبت الرعب في قلوبهم.

ومن ذلك كتاب نصر بن سيار^(٢) إلى مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية) يستنجد به ويستمد عونه، ويسأله النصرة على عدوه، وضمّن كتابه أبياتا من الشعر تصف حالهم، وهي: (من الوافر)

(١) تاريخ الطبري ٢٤٩/٦. جمهرة رسائل العرب ١٧٤/٢. البيت لعمر بن معدي كَرِبَ- وينسب لغيره- ينظر شعر عمر بن معدي كَرِبَ الزبيدي، جَمَعَهُ: مطاع الطرايبشي، ص ١١٣، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الثانية ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٢) والي خراسان من قبل هشام بن عبد الملك، كان حازما عالما بالسياسة، عفيفا مجريا (ت ١٣١هـ). ينظر: تاريخ الطبري ١٥٤/٧، ١٥٥، ٤٠٣. وفيات الأعيان ١٤٩/٣

أرى خَلَلَ الرَّمَادِ وميضَ جمرٍ
فإن النار بالعودين تُذكى
فإن لم تُطفئوها نَجِنَ حرباً
أقول من التعجب: ليت شعري
فإن كانوا لِحَيْنِهِمْ نياماً
فصرى عن رحالك، ثم قولي
ويوشك أن يكون له ضرامٌ
وإن الحرب أولها الكلام
مشمرة يشيب لها الغلام
أيقاظ أمية أم نيام؟
فقل: قوموا فقد حان القيام
على الإسلام والعرب السلام^(١).

وهذا الشعر-الذي ذيل به نصر كتابه- يكشف عن تفاقم الأمر وشدته، وبلوغه الغاية، وكأنه يرى ما سوف يحدث، فهو يتوقع حرباً ضروساً، يشيب من هولها الرضيع، قد أوشكت على الانتقاد، فلو تيقظت بنو أمية أخدمت وأطفئت في مهدها، وإن غفلوا عنها ولم يدركوا خطرهما فعلى العرب والإسلام السلام، ونصر يعني بذلك دعوة أبي مسلم الخراساني وكان قد عظم أمره، وكثر أتباعه، وكان ذلك مؤذناً بانتهيار دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس، وذلك أمر الله في خلقه، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وكان للشعر دوره المهم في الكشف عن شدة الأمر وخطورته، وبلوغه الغاية، كما يكشف عن براعة الكاتب في تطويع النص الشعري لخدمة غرضه، وملاءمته للسياق والمعنى الذي أراده، وحرصه على الاستعانة به في تحقيق هدفه.

خامساً - القوة والوضوح

إن نثر الفتوحات الإسلامية، -خاصة الخطب- نثر واضح جلي، لا مجال فيه للعبارات المعقدة، والمعاني الغامضة، أو الأساليب الملتوية، وتبدو فيه النزعة الحماسية واضحة، والمتحدث في مثل هذا الموقف لا يقف ليتكلف في أسلوبه، أو يبتغي ألفاظاً

(١) وفيات الأعيان ١٥٠/٣. تاريخ الطبري ٣٦٩/٧. الإمامة والسياسة ١٥٧/٢.

بعينها، وإنما يعبر عما في نفسه في يسر وسهولة، وقوة ووضوح، ومن ذلك قول عبد الرحمن بن الأشعث حين وجهه الحجاج إلى سجستان لحرب (رتبيل) ملك الترك، يخاطب الجند ويحثهم على القتال: "أيها الناس: إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم، وأمّرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم، وأباد خياركم، فإياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيحل بنفسه العقوبة، اخرجوا إلى معسكركم فمسكروا به مع الناس"^(١).

كلمات واضحة قوية يقذفها الكاتب في قلوب المجاهدين ليحمسهم على القتال وخوض المعركة، ومصاحبة الهيجا، والاستبسال في ملاقاته عدوهم، والتفاني في الدفاع عن دين الله، وأسلوب قوي فيه تحذير وتخويف ونهي عن التخلف عن جهاد العدو، وأمّر بالخروج إلى معسكر الجيش مع المتأهبين للقتال، وزجر واضح وتهديد بالعقوبة للمتخلف، وتبدو الشدة واضحة في أسلوب الخطيب وهذا يستوجبه الموقف، وتستدعيه الحاجة، ذلك أن الموقف موقف جهاد وقتال، فلا مجال للتخاذل أو التهاون.

وقد جاءت الألفاظ شديدة قوية، لا غموض فيها ولا التواء، معبرة عن غرض الكاتب، كاشفة عن المعنى الذي أراده في يسر وسهولة، تؤكد على قوة الأسلوب وجودته، والسبب في وضوح الأسلوب وقوته، وبعده عن الغموض والتكلف، يرجع إلى طبيعة الموضوع، فجل هذه الكتابات تُكتب أو تُلقى في ساح الوعى وميادين القتال، والمتحدث فيها القائد أو أحد الجند، فهو مشغول بالقتال، وأمّر الجهاد، ومواجهة العدو، لذا لم نجد ألفاظا معقدة، أو أساليب ملتوية، وهو في هذا الميدان لا يجد أمامه إلا أن يعبر عما في نفسه، بألفاظ وعبارات واضحة، تناسب المقام، وتتواءم والموقف الذي يعالجه، وتؤدي الغرض المطلوب في يسر وسهولة. وقد مرت بنا نماذج تؤكد على ذلك، ولا داعي لتكرارها.

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٨/٦. جمهرة رسائل العرب ١٨٦/٢، ١٨٧.

سادسا - الألوان البديعية

برزت الألوان البديعية واضحة في هذا النثر، وهي دليل ثراء اللغة واتساعها، سيما إذا كانت قليلة، عفوية، بعيدة عن التكلف، تلائم المعنى، وترسخ الفكرة.

من هذه الألوان: السجع؛ ومن النماذج الذي أدى فيها السجع دورا مهما في إيضاح المعنى، وتأكيد الفكرة قول طارق: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزياناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطعان، وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم"^(١).

في خطبته التي يحث فيها الجند على الفتح يغريهم طارق بما في جزيرة الأندلس من الحور الحسان، والغنائم الوفيرة، وقد راح الكاتب عن طريق السجع يشبع هذه الفكرة ويجليها، فالسجع الواقع بين الفواصل: (الحسان/ اليونان/ والمرجان/العقيان/ التيجان)- فضلا عما بينها من جناس ناقص- يكشف عن النعم الكثيرة، والغنائم الوفيرة في جزيرة الأندلس، وفيه حض للجند وإثارتهم بهذه الغنائم، وإغرائهم بالحور الحسان، والفواصل: (عزياناً/ أختاناً)، (للطعان/ الفرسان)، تكشف عن قوة بأسهم وشجاعتهم، وتوحي بأنهم أهل للطعان والقتال، وذووا شجاعة وبأس، وقد استطاع الخطيب عن طريق السجع أن يحيط بالمعنى الذي أراده، ويثبت الفكرة التي يرومها، ويحقق الغرض الذي يسعى إليه، وهو تحميس الجند وشحن عزائمهم، ودفعهم إلى القتال، ومواجهة أعدائهم.

(١) وفيات الأعيان ٥/٣٢١، ٣٢٢. نفح الطيب ١/٢٤٠، ٢٤١.

ويأتي الجنس ضمن الألوان البديعية التي بدت واضحة في هذا النثر. ومن النماذج التي اعتمد فيها الكاتب على الجنس في إبراز معانيه وتأكيدا قول المهلب: "أما بعد: فإننا لقينا الأزارقة المارقة بحدّ وجدّ، فكانت في الناس جولة، ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة، وأبدان شداد، وسيوف حداد، فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دريئة رامحنا، وضرائب سيوفنا"^(١).

يصور القائد ما كان من أمرهم مع العدو في أرض المعركة، فيبين أنهم حملوا عليه وقاتلوه أشد قتال، ولم يتهاونوا في النيل منه حتى كتب الله لهم النصر، وجاء الجنس ليؤكد فكرته ويقويها، فالجناس بين: (حدّ/ جدّ) وبين (شداد/ حداد) يؤكد على خطر الموقف، وشدة القوم في ملاقات عدوهم، والحمل عليه، وبين (رامحنا/ سيوفنا) يكشف عن تمكنهم من العدو والظفر به والنصر عليه، كما يوحي بشدة النزاع، وقد جاء طيعاً مناسباً، مؤكدا للمعنى، مرسخاً للفكرة.

والطباق من الألوان المعنوية التي اتكأ عليها الكتاب في نثرهم، فله دوره المؤثر في الكشف عن المعنى، وإبراز الصورة بما يحدثه من الضدية التي تقع بين الألفاظ، فتثير القارئ وتفاجئه، وتجذب انتباهه، ومن نماذجه قول المهلب مخاطبا الحجاج: "إننا منذ خرجنا نؤمّ هذا العدو، في نعم من الله متصلة علينا، ونعمة من الله متتابعة عليهم، نقدم ويحجمون، ونحلّ ويرتحلون... والحمد لله رب العالمين، الذي من عنده النصر وهو العزيز الحكيم"^(٢).

لقد حملوا على العدو في المعركة ونالوا منه، والمقابلة هنا تكشف عن حالهم معه، فهم في نعمة من الله وفضل متصل، أما عدوهم فهو في نعمة متتابعة لا تنقطع، والطباق بين: (نقدم/ يحجمون)، (نحلّ/ يرتحلون) فيه ما يكشف عن حملهم على عدوهم وتمكنهم منه، ويوحي بتقهقره، وتخاذله أمام جيش المسلمين.

(١) الكامل للمبرد ٣: ٢٣٦. ضرائب سيوفنا: كل ما ضربت بسيفك.

(٢) السابق: ٢٢٦/٣.

ومن ذلك قول موسى بن نصير من خطبة: "وبعد: فإن كل من كان قبلي كان يعتمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة"^(١).

الطباقي واضح بين (الأقصى/أدنى)، (الفرصة/العورة) وفيه ما يدل على أن القائد أولى به أن لا يترك فرصة إلا ويغتنمها، ولا يترك ثغراً لعدوه قريباً كان أم بعيداً، فربما كان العدو الأدنى أشد بأساً، وأعظم جرماً من العدو الأقصى، كحال الأزارقة، والطباقي هنا يكشف عن خبرة القائد بأمر الحرب، وأخذة بالحيلة في قتال العدو.

وقول طارق في خطبته المشهورة: "البحر من ورائكم، والعدو أمامكم"، فيه ما يكشف عن خطر الموقف وشدة الأمر وأنهم لا سبيل أمامهم إلا المواجهة والنصر على عدوهم، والطباقي هنا له دوره في تفخيم المعنى، وتأكيد وإثباته في ذهن المتلقي، فيحملوا على عدوهم، ويستبسلوا في الدفاع عن دينهم.

إن اللون البديعي في هذا النثر ليس حلية فحسب، وإنما يُعد - بجانب ذلك - لبنة فنية تتأزر مع غيرها من لبنات العمل الفني لتزيد المعنى جلاءً ووضوحاً، والفكرة قوة ورسوخاً، وتضفي على الأسلوب رونقاً وجمالاً. والنماذج كثيرة، تؤكد استعانة الكاتب باللون البديعي في التعبير عن معانيهم، وترسيخ أفكارهم.

سابعاً - العاطفة

بدأت العاطفة الصادقة واضحة جلية في هذا النثر؛ فالقائد أو الخطيب أو الكاتب في أرض المعركة متأهب لقتال عدوه، قابض على سيفه، لا يغادر رمحه، فلا مجال للمداهنة أو الزيف أو الخداع، إلا في تدبير أمر الحرب، فكما يقال: الحرب خُدعة.

(١) الإمامة والسياسة ٧٣/٢.

والعاطفة هي الانفعال والإحساس بالموقف الذي يعالجه الكاتب، ولها أهميتها في العمل الأدبي، وأهم مقاييسها أن تكون صادقة غير مفتعلة. والصدق هنا مقصود به الصدق الفني، ويتحقق لها ذلك عندما تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع، حتى تكون صادقة عميقة تهبُّ للأدب قيمةً خالدةً^(١).

وقد تحقق لهذا النثر صدق العاطفة، وقوتها وثباتها، والدليل على صدق العاطفة وقوتها لدى هؤلاء القادة والكاتب: إحساس المتلقي بمشاعر القوة والشدة والتأهب للقتال، والعزم والحزم في مجابهة أعداء الله، والخارجين على حدوده، والمارقين عن الدين بين سطور هذا النثر، وشعوره بما يشعر به الكاتب، فجاءت التجربة معبرة عن شعور الكاتب كاشفة عن مواقفه في ميادين الوغى، وساح المعركة، وجهاده في الله حق جهاده، والدفاع عن دين الله، بدا ذلك جليا في نثرهم، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور، وصدق الإحساس وأثر ذلك على النفس، تتطرق به خطبهم وكتاباتهم.

وقوة العاطفة إنما تتضح بمقدار انفعال المتلقي وتأثيرها في نفسه، فإذا حرك النص عواطف القارئ وأثار مشاعره كان صادق العاطفة قوي الشعور، فالأديب لكي يثير شعور القارئ أو السامع يجب أن يكون هو قوي الشعور في أدبه^(٢). وهذا ما وجدناه في هذا النثر، فهو يفيض بالقوة، والعمق، والصدق، والسمو.

وأقول: أفي خطب قنتية بن مسلم التي مرت بنا شكٌّ في أنه يريد فتح بلاد الكفر ونشر الإسلام في هذه البلاد القصية التي لا تعرف للإسلام سبيلا؟! أفي نيته للجهاد في سبيل الله وقاتل أعداء الله شك؟ إنها تؤكد عزمه على فتح هذه البلاد ونشر دين الله فيها، وقد فتح الله على يديه بلادا كثيرة، فدكَّ حصون سمرقند، وفتح بخارى، وبلخ

(١) ينظر: أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، ص ١٩٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٤م.

(٢) ينظر: في النقد الأدبي: د. عبد العزيز عتيق، ص ١١٢، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م.

والسُغد وشومان، حتى وصل إلى الصين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في هذه البلاد القصية.

أفي مناهضة المهلب ابن أبي صفرة للأزارقة، وقتاله إياهم، وعزمه على استئصال شأفتهم شك؟! وقد بغوا وطغوا، وعاثوا في الأرض فسادا، وفتنوا المسلمين في دينهم، كان يقاتلهم من قبل ابن الزبير، ولما قُتل ابن الزبير ظل يقاتلهم تحت إمرة الحجاج، ولم ينظر إلى من يأمره وينهاه، وإنما كان همّه مصلحة المسلمين، وهدفه الجهاد في سبيل الله، ابتغاء رضوانه.

وتلك كتابات يزيد بن المهلب تشهد برباطة جأشه، وقوة عزمته، وإصراره على فتح بلاد الكفر. وهذا طارق بن زياد لا تروجه الأهوال، ولا يخشى الردى، ولا يتردد في خوض معامع الأخطار مهما أهدت به، بل يستقبل الموت بصدر رُحْب، ويضحى في سبيل الله لنشر دينه، تشهد بذلك خطبته المتوقدة الثائرة، وقد فتح الله علي يده فتوحات كثيرة في بلاد الأندلس.

وموسى بن نصير يقسم بالله تعالى ألا يترك قلاع الكفر، وجبالها الممتعة حتى يضع الله أرفعها، وبذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها، أو يحكم الله له فيها وهو خير الحاكمين^(١).

إنها العاطفة الصادقة التي لا تعرف للخذلان سبيلا، ولا للهزيمة طريقا، هي تلك العاطفة التي تمور بداخلهم، وتقودهم لقتال أعداء الله، ومجابهة أهل الباطل، وتحركهم في سبيل رفع راية الإسلام والمسلمين، ونشر دين الإسلام في أقاصي البلاد، يحفزهم إيمان صادق، ويلهب عزائمهم شوق جارف إلى إحدى الحسينيين، النصر أو الشهادة في سبيل الله، والرغبة في نشر دين الله في سائر الأرجاء والأمصار، فالحمد لله على نصره العظيم، وفتح المبين الذي أتمه على المسلمين، فأعز به الإسلام، ورفع شأن المسلمين.

(١) ينظر: الإمامة والسياسة ٧٣/٢ .

المبحث الرابع : خصائص وسمات

اتسم نثر الفتوحات الإسلامية بسمات وخصائص ميزته من غيره، وأضفت عليه قيمة فوق قيمته، وذلك راجع لطبيعة الموضوع الذي يعالجه هذا النثر، والفكرة التي يسعى لإبرازها، والتجربة الشعورية التي يستوعبها.

أولاً- بروز الاتجاه الوعظي

ويظهر ذلك جلياً في بيان فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، والحض عليه، والتذكير بثوابه العظيم، والترغيب في الشهادة، وتصوير أجر الشهداء عند ربهم، وذم الدنيا وعدم التعلق بها، والتأكيد على زوالها، والدعوة إلى الصبر والصدق عند لقاء العدو، والرضا بقضاء الله- تعالى، مما كان له الأثر الواضح في التأثير في نفوس المجاهدين وتحفيزهم إلى الجهاد في سبيل الله.

وقد مرت بنا نماذج كثيرة تؤكد على ذلك؛ ومن ذلك قول خالد بن عبد الله بن أسيد محرراً على الجهاد: "أما بعد: فإن الله كتب على عباده الجهاد، وفرض طاعة ولاة الأمر، فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، ومن ترك الجهاد في الله كان الله عنه أغنى"^(١).

وقول عتّاب بن ورقاء مؤكداً على عظيم أجر الشهادة في سبيل الله، ويحض على الصبر: "يا أهل الإسلام: إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين؛ ألا ترون أنه يقول: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؟"^(٢).

ومن ذلك قول مسلم بن عبيس يؤكد أنه ما خرج بيتغي شيئاً من عرض الدنيا، وإنما خرج للجهاد في سبيل الله، وهدفه إحدى الحسنين، النصر أو الشهادة في سبيل الله:

(١) تاريخ الطبري ١٩٨/٦، جمهرة رسائل العرب ١٣٦/٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٦٣/٦. والقرآن الكريم من سورة الأنفال: من الآية(٤٦).

"إني ما خرجت لامتيارٍ ذهبٍ ولا فضةٍ، وإني لأحاربُ قومًا إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع"^(١).

وقول عبد الملك بن مروان حين تهيأ لغزو بلاد الروم: "إن العدو قد كلبَ عليكم، وطمعَ فيكم، وهُنتم عليه لتتركُم العملَ بطاعة الله، واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله"^(٢). وقوله: "أيها الناس: إنكم قد علمتم ما ذكرَ الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد، وما وعدَ عليه من الثواب، ألا وإني قد عزمتم أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى أليون صاحب الروم، فإنه قد طعَى وبغَى"^(٣).

وهذا طارق يقسم بالله أنه لا سبيل لهم للظفر والنصر على عدوهم إلا الصبر والصدق: "وليس لكم-والله- إلا الصدق والصبر"^(٤).

إن الاتجاه الوعظي جد واضح في نصوص هذا النثر، وقد فاضت هذه النزعة الوعظية بهذه التعابير: (من جاهد فإنما يجاهد لنفسه، أعظم الناس نصيبًا في الجنة الشهداء، ليس الله لأحدٍ بأحمدَ منه للصابرين، واصبروا، ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة، من كان شأنه الجهاد فلينهض، طاعة الله، حق الله، فضل الجهاد، الثواب، ليس لكم إلا الصدق والصبر) وهي صياغة تؤكد على فضل الجهاد في سبيل الله، وتنبئ عن عظيم جزاء المجاهدين، وفضل الشهادة في سبيل الله، كما تكشف عن عمق الشعور، وصدق التجربة، وقوة الانفعال بالموقف، وتكشف عن روح إيمانية تسري في النص.

(١) الكامل للمبرد ٣/ ٢١٣.

(٢) كتاب الفتوح لابن أعمم الكوفي: تحقيق: على شيري ٧/ ١١٠، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٣) السابق: ذات الصفحة.

(٤) وفيات الأعيان ٥/ ٣٢٢. نفع الطيب ١/ ٢٤١.

إنها دعوة واضحة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، ونيل درجة المجاهدين، وحض على الصبر والصدق، والثبات والشدة في ملاقات العدو، والقتال بعزم وحزم حتى يمن الله عليهم بالنصر، وفيها حض على الشهادة في سبيل الله تعالى ونيل ثوابها العظيم، وهي دعوة صادقة من شأنها أن تجذب المتلقي وتحمسه، وتثير في نفسه الشوق إلى الجهاد والاستعداد له، ابتغاء ثوابه، ونيل درجة الشهداء، ولها دورها في إثبات الفكرة، وإقناع المتلقي، وكان لاستشهاد الكتاب بأي الذكر الحكيم أثر واضح في التأثير في النفوس، وسبيل لشحذ همم الجند، وإذكاء حماسهم، واستنهاضهم للقتال، طمعاً في ثواب الجهاد، والظفر على الأعداء، أو نيل الشهادة في سبيل الله تعالى.

ثانياً- التوجيهات والآداب الحربية

ومما يتسم به هذا النثر -أيضاً- تلك الوصايا والتوجيهات التي يوجهها أولوا الأمر للقادة أو الجنود عند الاستعداد للغزو أو الفتح، أو يلقونها القادة على الجنود قبل لقاء عدوهم في ميدان المعركة، وهي آداب وتوجيهات تعنى بإعداد الجيوش، وتنظيم أمر القتال، وتوجيه الجند إلى ما يؤهلهم بالظفر على عدوهم.

وقد قيل: الحربُ رحىٌ تَقَالُهَا الصبرُ؛ وقُطِبُهَا المَكْرُ، ومَدَارُهَا الاجتهادُ، وثِقَافُهَا الأناةُ، وزِمَامُهَا الحَذْرُ؛ ولكل شيءٍ من هذه ثمرة: فثمرَةُ الصبرِ التأييدُ، وثمرَةُ المَكْرِ الظَفْرُ، وثمرَةُ الاجتهادِ التوفيقُ، وثمرَةُ الأناةِ اليُمنُ، وثمرَةُ الحَذْرِ السلامةُ؛ ولكل مَقَامٍ مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال^(١).

وكثرَت النماذج التي يبدي فيها أولوا الأمر النصح للقادة أو الجند، ومنها: قول عبد الملك بن مروان لابنه مسلمة حين سيره لغزو بلاد الروم: "يا بني إني قد نديتُك لهذا الأمر، وشرفتُك بهذا الجيش... فكن يا بني بالمسلمين باراً رحيماً، وأميراً حليماً، ولا تكن عنيداً كفوراً، ولا مختالاً فخوراً، واعلم يا بني أن الروم سيقونك بجيش كثير، وجمع

(١) العقد الفريد ١/١٠٨، ١٠٩. الثقال: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

كبير، فثق بالله واستعن به، وتوكل عليه، فكفى بالله وليا وناصرًا... وانظر يا بني: لا تكسل، ولا تقشل، ولا تجزع، ولا تهلع، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ما أوصيتك به، استوجبت من الله المقت، ومن عباده البغض، ومن ملائكته اللعن، فإنه تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ قِتَّةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وصايا حكيمة من رجل مجرب حكيم، خبر الحياة، وعامل الناس، فهو يوصيه باللين، والرحمة، والتواضع، وحسن المعاملة، ويحذره من الكبر، كما يوصيه بالتوكل على الله، والثقة به، فهو نعم المولى ونعم النصير، وليكن جلدًا صابرا، شجاعا، متيقظا لعدوه، مقبلا على القتال غير مُدبر.

ومنها ما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عامله على خراسان: "إنه بلغني أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا بعث جيشا أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا، فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك"^(٢).

وهي وصايا تسيير على نهج النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكشف عن الوازع الديني لدى الموصي، والمعاملة الحسنة التي ينبغي أن يتعامل بها المسلم مع غير المسلمين، ترغيبا لأهل الكفر في الإسلام، بدا ذلك واضحا في أسلوب النهي (لا تغلوا، لا تغدروا، لا تثلوا، لا تقتلوا) والذي يؤكد على الحرص على تحقيق وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم، ونشر صورة حسنة للإسلام.

ومن ذلك أيضا قول المهلب بن أبي صفرة يوصي بنيه: "وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة؛ فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن

(١) كتاب الفتوح ١١١/٧. والآية الكريمة من سورة الأنفال: آية (١٦).

(٢) العقد الفريد ١٥١/١.

أَخَذَ رَجُلٌ بِالْحَرَمِ فَظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ قِيلَ: أَنْتَى الْأَمْرَ مِنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ ظَفَرَ، فَحَمِدَ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرَ بَعْدَ الْأُنَاةِ قِيلَ: مَا فَرَطَ وَلَا ضَبَّحَ؛ وَلَكِنَّ الْقَضَاءَ غَالِبٌ^(١).

والمهلب قائد مجرب، وفارس مغوار، حلب الدهر أشطره، وخبر الحروب وجربها، وكان معروفا بترويه وصبره وأناته في أمر الحروب والمعارك، يوصي بنيه-وكانوا معه في كثير من الفتوحات- بالأناة والروية، والمكيدة والحيلة عند ملاقاته العدو، وربما أخذوا بسبب تعجلهم، ونال منهم العدو، فالأناة في الحرب نعم البضاعة، وأنفع من الشجاعة. وهي توجيهات ووصايا حربية مهمة ينبغي أن يأخذ بها الجند في قتالهم لإرهاب عدوهم، والظفر عليه بإذن ربهم، وهي تكشف عن خبرة الموصي بأمر الحرب والقتال، وحظه من الحكمة والدربة، ورزانة العقل، وقوامة الفكر.

ومن أوفى الرسائل في هذا الباب رسالة عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد إلى وليّ عهده، وفيها من النصائح والتوجيهات السياسية والحربية ما يجعلها أساساً في تعبئة الجيوش وتنظيمه^(٢).

ثالثاً- الإيجاز

سمة واضحة غلبت على نثر الفتوحات الإسلامية، فالحديث في ميادين الحرب والقتال لا مجال فيه للإطالة والتفصيل، إلا ما ندر، وإنما هو كلام مقتضب، يؤدي المعنى المطلوب، ويشد انتباه الجند، فجاءت الأفكار موجزة مركزة، والمعاني واضحة، بما يثري النص، ويضفي عليه الحيوية والإثارة الفنية، والإيجاز هنا هو ذلك الذي يشكل قيمة فنية يتطلبها الموقف، وتستدعيها التجربة، ولا تخل بالمعنى المراد.

ومن ذلك قول قتيبة بن مسلم لما نعى إليه اجتماع جيوش الشاش وفرغانة^(٣): "إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم، وتأييده إياكم في مزاحمتكم ومكاثرتكم، كل ذلك يُفلجكم

(١) تاريخ الطبري ٦/٣٥٤، ٣٥٥. البيان والتبيين ٢/١٨٨.

(٢) ينظر: صبح الأعشى: ١٠/١٩٥-٢٣٣.

(٣) غزا قتيبة الشاش وفرغانة (٩٤هـ). ينظر: تاريخ الطبري ٦/٤٨٣. الكامل لابن الأثير ٤/٢٨١-٢٨٣، وهما كورتان وراء نهر سيحون، متاخمتان للصين وتركستان. ينظر: معجم البلدان ٣/٣٠٨، ٤/٢٥٣.

الله عليهم، فأجمعوا على أن يحتالوا غرتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسائهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبلوا الله بلاء حسناً تستوجبون به الثواب، مع الذبّ عن أحسابكم»^(١).

اجتمعت كلمة الأعداء على قتال قتيبة، وجمعوا جحافلهم وساروا بجيوشهم يريدون القضاء على المسلمين، ولما علم بذلك انتخب أهل النجدة والبأس وراح يحمسهم ويشد من أزرهم، ويُطري شجاعتهم وإقدامهم وبلاتهم في الحروب، ومجاهدة أعداء الله، حاضاً لهم على الاستبسال والبلاء الحسن في مواجهة العدو، ومهوناً من شأنه، مستهيناً بقوته وعدده وعُدته، مرغّباً في ثواب الجهاد العظيم، مؤكداً أنهم يقاتلون لإعلاء كلمة الدين ورفع راية الإسلام والمسلمين (وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم/ فضلكم الله بدينه).

وهي خطبة موجزة، في كلمات معبرة، وعبارات مقتضبة، وأفكار مكثفة، أدت الغرض المطلوب، وكشفت عن فداحة الخطب، وشدة الأمر، وفيها من إثارة العواطف وشحن النفوس، فلا سبيل للتخاذل أو التكاثر، وإنما هي الحرب والقتال، والمواجهة والسجال، فإما النصر وإما الشهادة: (فأبلوا الله بلاء حسناً، تستوجبون به الثواب، مع الذبّ عن أحسابكم). وفيه ما يبعث في نفوس الجند الحماس والعزيمة على قتال الأعداء، ويأخذ بأيديهم إلى الظفر والنصر إن شاء الله.

ومن ذلك قول الحجاج إلى ابن الأشعث يأمره بالوغول في أرض العدو: «أما بعد، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم، وإلا فإن إسحق بن محمد أخاك أمير الناس فخلّه وما وليته»^(٢).

(١) تاريخ الطبري ٤٧٧/٦ . جمهرة خطب العرب ٢/٢٩٢.

(٢) تاريخ الطبري ٣٣٥/٦ . جمهرة رسائل العرب ٢/١٨٨. ويعني أرض سجستان وقاتل رُتبيل ملك الترك.

كتاب موجز يلخص القضية، ويشرح الموقف، ويؤدي المعنى المطلوب، فقد تفاقم الأمر، وبدأ سلطان العدو يقوى، فلا سبيل إلا المواجهة، والحمل على العدو.

إن لفظة الوغول تحمل من المعاني والدلالات والظلال ما يكشف عن رغبة الحجاج الملحة في قتال العدو والتمكن من أرضه، وفيه من الحز على العزم، وعدم التواني في هذا الأمر، فليس القتال هو المنشود فقط، وإنما القتال والنصر والظفر، والقضاء على الكفر وأهله، ونشر الإسلام في هذه الأرض، وجعلها من ديار المسلمين.

وقول مصعب بن الزبير إلى المغيرة بن المهلب يحضه على الجد في قتال العدو: "إنك إن لم تكن كأبيك فإنك كافٍ لما ولَّيتُكَ، فشمِّرْ واتَّزِرْ، وجدِّ واجتهد"^(١).

حض على الجد والاجتهاد في مناهضة العدو، والتشمير والعزم على الجهاد، وفيه من التحذير الضمني ما يحمل المتلقي على الحزم والجد، فإن لم تكن كأبيك المهلب قوة وبأسًا وشجاعة وعزمًا فلا حاجة لنا إليك.

كلمات قليلة، في حيز محدود من العبارات الموجزة التي تعتمد على إحياءات الكلمات وظلالها، وما تحمله من دلالات، وما تشعه من صور وأحداث تقي بالفكرة، وتؤدي المعنى المطلوب، وتكشف عن غرض المتكلم.

إن الحديث في ميدان المعركة حديث قوي موجز، يؤدي المعنى المطلوب ويكشف عن هدف المتكلم، وهو كلام قليل يحمل معاني كثيرة ممتدة، وفيه من التأنى والروية ما يكشف عن حنكته وحكمته، ويحمل من العبارات الثائرة، والكلمات المتوثبة التي يقذفها المتكلم في قلوب الجند محمِّسًا على القتال ومصاحبة الهيجا، والاستبسال في ملاقات العدو، والتفاني في الدفاع عن دين الله تعالى.

(١) الكامل للمبرد ٢٣٩/٣.

رابعاً - الترابط والتواؤم

إن قارئ هذا النثر، المتأمل فيه، يجد تواؤماً وتناسباً بين أفكاره ومعانيه، وترابطاً واضحاً بين أجزائه، إذ يلفه رابط واحد يهيمن عليه من أوله إلى آخره هو تلك العاطفة الثائرة لدى القائد والجند للدفاع عن الإسلام وفتح بلاد الكفر، ونشر دين الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ورفع راية المسلمين، وإحساس الكاتب بمسئوليته نحو دين الله تعالى، لا حباً في الغزو وتهافتاً على مغانمه، وإنما جهاداً في سبيل الله، يدفعهم إليه الإيمان الصادق الكامن في قلوبهم، يعضده ويذكيه شوق إلى النصر، وتطلع إلى ثواب الجهاد العظيم، وإيمان بوعد الله ونصره لعباده المؤمنين، وأمل في التقرب إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته، أو الشهادة في سبيله، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُكْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١)، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

إنني أجد تعبير الكتاب عن شوقهم إلى الجهاد، وتحمسهم لقتال أعداء الإسلام، وشوقهم إلى الفتح، ونشر دين الله في ربوع الدنيا، وحضهم للجند على الجهاد واستنهاض عزائمهم، يتبعه دعوة للصدق والصبر، والثبات والاستبسال عند ملاقات العدو، والتحذير من كيده، ثم وصف للمعركة وما فيها من كبرٍ وفرٍ حين يجتمع الفريقان، ويلتقي الجمعان، وتتطق السيوف، وتطعن الرماح، ينتهي ذلك بالحصار والصبر عليه، أو النصر، أو الشهادة، ثم التهئة بالفتح، وحمد الله تعالى على نعمة النصر.

ف نجد أن الأفكار والمعاني متحدة متوائمة، والجو العام في الخطبة أو الرسالة متماسك مترابط، يشملها جو إيماني، وتلفه عزيمة ملتهبة للجهاد، وقلوب متقدة لنصرة

(١) سورة النساء: الآية (٧٤).

(٢) سورة الحج: من الآية (٤٠).

دين الله تعالى، وأفئدة متطلعة للجنة، يذكيه شوق جارف لإحدى الحسنين: النصر أو الشهادة في سبيل الله، وقد امتزجت العاطفة بالفكرة، والتقت المشاعر والأحاسيس بالحكمة، في عاطفة قوية وأحاسيس فياضة، تنبئ عن انفعال الكاتب الحقيقي بالتجربة، وإحساسه الصادق بالموقف الذي يعالجه.

كما اتسم هذا النثر بالتواؤم العام، والتآلف الشامل مع الجو النفسي الذي يحياه الخطيب أو الكاتب وهو في ميدان المعركة، يحض الجند على القتال، يلهب عزائمهم، ويخوفهم من الهزيمة، ويبث في قلوبهم الحمية، ويحذرهم من التهاون في القتال، ويبشّرههم بنصر الله تعالى، مبينا لهم فضل الجهاد في سبيل الله، وثواب الشهادة العظيم، فانطلقوا على رغبةٍ وحنينٍ إلى ميادين الوغى، رغبة في جزاء الجهاد العظيم، ونعيم الجنة الجزيل، هذا الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب يتسم بالثورة النفسية، والعزيمة المتوثبة لقتال أعداء الله، وصدق العاطفة، وعمق الشعور، وهو يلف أجزاء هذا النثر ويسيطر عليه من أوله إلى آخره، لذا جاء هذا النثر بمعانيه، وأفكاره، متوائماً مع ذلك الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب، ملتحم به، مفضي في النهاية إلى تعانق الأفكار مع المعاني، وتآزر الشكل مع المضمون، يعبر عن إحساس الكاتب النفسي، ويكشف عن سمو التجربة، وبلوغها الدرجات العلى.

خاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. وبعد: فقد انتهى البحث إلى النتائج الآتية:

- الفتوحات الإسلامية في بني أمية داخلية: تتمثل في قتال الخارجين على ثوابت الإسلام من الفرق والنحل، وكانت الخوارج- والأزارقة منهم خاصة- أكثرها جمعا، وأشدّها خطرا على الإسلام والمسلمين، وخارجية: تمثلت في تلك البلاد التي منّ الله على المسلمين بفتحها، بقيادة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حملوا لواء الفتح الإسلامي، ونشروا دين الإسلام في ربوع الأرض، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وقتل أعدائه، منهم: المهلب بن أبي صفرة، ويزيد بن المهلب، وقتيبة بن مسلم، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وغيرهم.
- كان القادة في جهادهم ضد أعداء الإسلام يحمسون الجند، يستنهضون هممهم وعزائمهم للقتال ببسالة وعزم وصدق، وينفرونهم من الهزيمة، ويهونون في نفوسهم القتل، ويؤلبونهم على أعدائهم، ويحضونهم على الثبات والاستبسال، ويحذرونهم من غدر العدو وكيدته، ويهونون من شأنه، حتى يمن الله عليهم بالظفر، متكئين في هذا كله على بيان فضل الجهاد، وأجره العظيم.
- سجل الكتاب في هذا النثر ما كان من أمر الجند في أرض المعركة وميادين الوغى، مصورين حال الجند ومواقفهم من الهزيمة والنصر، وصمودهم أمام جحافل العدو، راصدين قوته وشدة بأسه، واستبسالهم في ملاقاته.
- قد يلجأ القائد إلى طلب المدد والعون حين يتكالب العدو على المسلمين، أو يحاصرهم ويضيق عليهم، أو يظهر عليهم لقلّة عددهم أو عُدتهم، أو لهوانهم وضعفهم، وتتسم كتب المدد والاستتجاد بالإيجاز الواضح، فالأمر جلل، والخطب عظيم، فلا مجال لكثير كلام، والمتحدث في مثل هذا الموقف يكتب ما يفى بالغرض، ويشرح الموقف، ويؤدي المعنى المطلوب.

- القائد في ميادين الوغى، وساح القتال ذو سمت خاص يميزه من غيره، فهو في موقع حساس، يفتقر إلى عقل رزين، وفكر قويم، وتصرفٍ حكيم، شجاع لا يهاب الردى، قوي الشكيمة، أَلَفَ ملاقات الأعداء، واعتاد خوض المعارك.
- شكر الله تعالى على نعمة النصر والتهنئة بالفتح من المضامين التي دار حولها نثر الفتوحات الإسلامية، فالنصر على العدو والظفر به من النعم التي تستوجب شكر الله تعالى، وحمده.
- عمد الكتاب إلى الوسائل المنوعة، وأنماط التصوير المختلفة في التعبير عن أفكارهم، والكشف عن معانيهم، وتصوير مشاعرهم، فاستعانوا بأساليب التعبير المنوعة كالاستفهام، والأمر، والقسم، والمقابلة، كما أخذوا من القرآن الكريم واستلهموا معانيه، واستقوا من ديوان الشعر القديم ما يناسب الغرض، ويحقق الفكرة، وقد استطاعوا أن يوظفوا هذه الوسائل في التعبير عن عواطفهم وانفعالاتهم، والكشف عن معانيهم وأفكارهم، بغية تأكيد المعنى وتحقيقه، وإقناع المتلقي والتأثير فيه.
- بدت عاطفة الكتاب واضحة قوية في هذا النثر، وجاءت التجربة معبرة عن صدق الكتاب، بدا ذلك جليا في نثرهم، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور، وصدق الإحساس وأثر ذلك على النفس، تنطق به خطبهم وكتاباتهم.
- اتسم نثر الفتوحات الإسلامية بسمات وخصائص ميزته من غيره، وأضفت عليه قيمة فوق قيمته، وذلك راجع لطبيعة الموضوع الذي يعالجه هذا النثر، والفكرة التي يسعى لإبرازها، والتجربة الشعرية التي يستوعبها، منها الاتجاه العوذي الذي غلب عليه، والإيجاز، والوصايا والآداب الحربية، والترابط والتواؤم بين الأفكار والمعاني، والتآلف مع الجو النفسي الذي يحياه المتكلم.
- إن نثر الفتوحات الإسلامية جاء مصورا حال الخلفاء والولادة والقادة مع أعداء الله، وحرصهم على نصرته دينه، ونشر دين الإسلام في شتى بقاع الأرض، وقد بدا القادة من خلال هذه النصوص رجالا ذوي شدة وبأس، وصرامة وخبرة، أشداء على الأعداء، فرسانا في ميدان الكلمة كما هم كذلك في ميادين القتال، لا يشق لهم غبار. والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله - تعالى - على سيدنا محمد وآله.

فهرس المراجع

- أدب السلسسة في العصر الأموي: د. محمد أحمد الحوفي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.
- أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، العاشرة ١٩٩٤م.
- الإمامة والسلسسة المعروف بتاريخ الخلفاء لابن قبيبة الدينوري، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: محمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، الثانية ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- البرهان في وجوه البيان: ابن وهب، تحقيق: د.حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفينسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الثالثة ١٩٩٣م.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.
- تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي: مجدي فتحي السيد، جدار الصحابة للتراث بطنطا، مصر ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.
- التاريخ الإسلامي (العهد الأموي): محمود شاكر ٤/٤٨ المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الثانية ١٩٧١م.
- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبغ المصري

نشر الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، المضمون والتشكيل الفني

- تحقيق د. حفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٩٨٣م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د. مصطفى جواد، د: جميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، العراق ١٣٥٧هـ - ١٩٥٦م .
 - جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت، مصطفى الباي الحلبي، القاهرة ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.
 - جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.
 - شعر عمر بن معدي كرب الزبيدي، جمعه: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الثانية ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
 - شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: د. النعمان عبد المتعال القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
 - العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وزميله، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
 - عيون الأخبار لابن قتيبة، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.
 - في النقد الأدبي: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م.
 - القانون في ديوان الرسائل: علي بن منجب الصيرفي ت ٥٤٢هـ، تحقيق: د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
 - الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: د. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
 - الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الثالثة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

- كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي: تحقيق: على شيري، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- لسان العرب: جمال الدين بن منظور، دار المعارف، القاهرة، بدون.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، الثالثة ١٩٥٣م.
- المسند للإمام أحمد، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الثانية، ١٩٩٥م.
- من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- المنثور والمنظوم، القسم الأول من الجزء الثالث عشر لابن طيفور دراسة وتحقيق: ضيف الله سعد حامد الحارثي(ماجستير)، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- مواد البيان: علي بن خلف الكاتب، تحقيق: د.حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ١٩٨٢م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: الشيخ أحمد بن المقرئ التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨م.